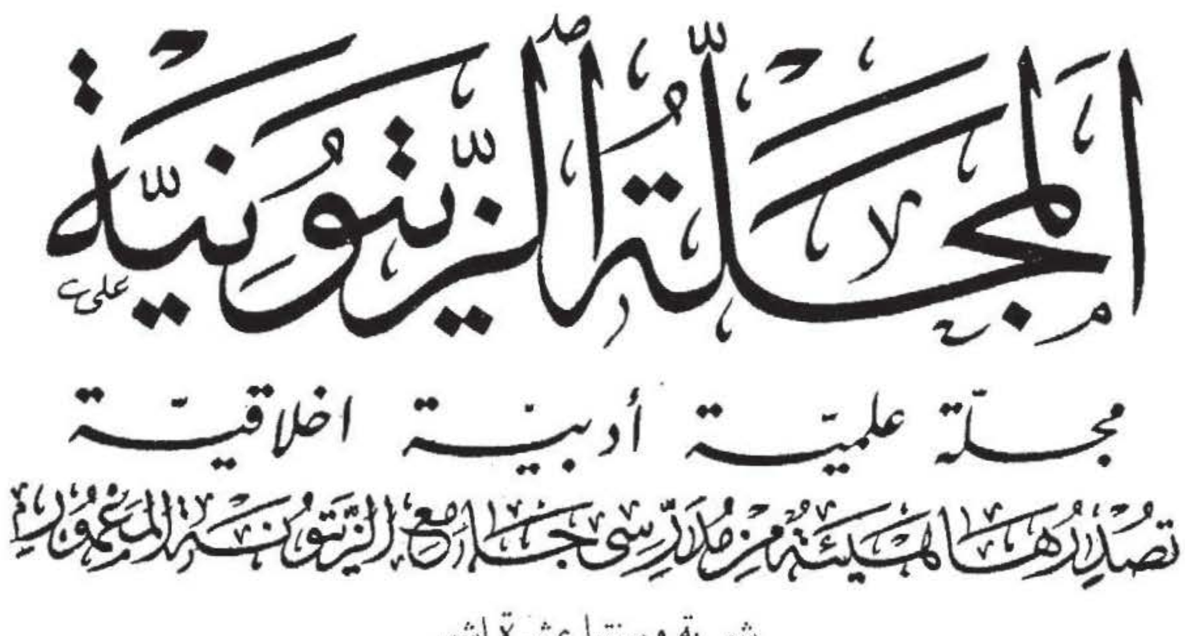


شهرية وسنتها عشرة اشهر

الجزء الرابع	تونس - في صفر الخير ١٣٥٨ - افريل ١٩٣٩	المجلد الثالث

رئيس قلم التحرير :

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة والمدير :

محمد الشاذلي ابن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الثاني بجامع حموده باشا

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس - تليفون ٤٩-٢٦

حساب جاري بادارة البريد رقم ٣٤٢٢

المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٤٧

فهرس العدد

المجلد الثالث — الجزء الرابع

الاشتراك

الادارة نهج الباشا رقم ٣٣ — تونس

عن سنة بالحاضرة وبلدان المملكة والجزائر والمغرب الاقصى وسوريا فرنكات ٣٠

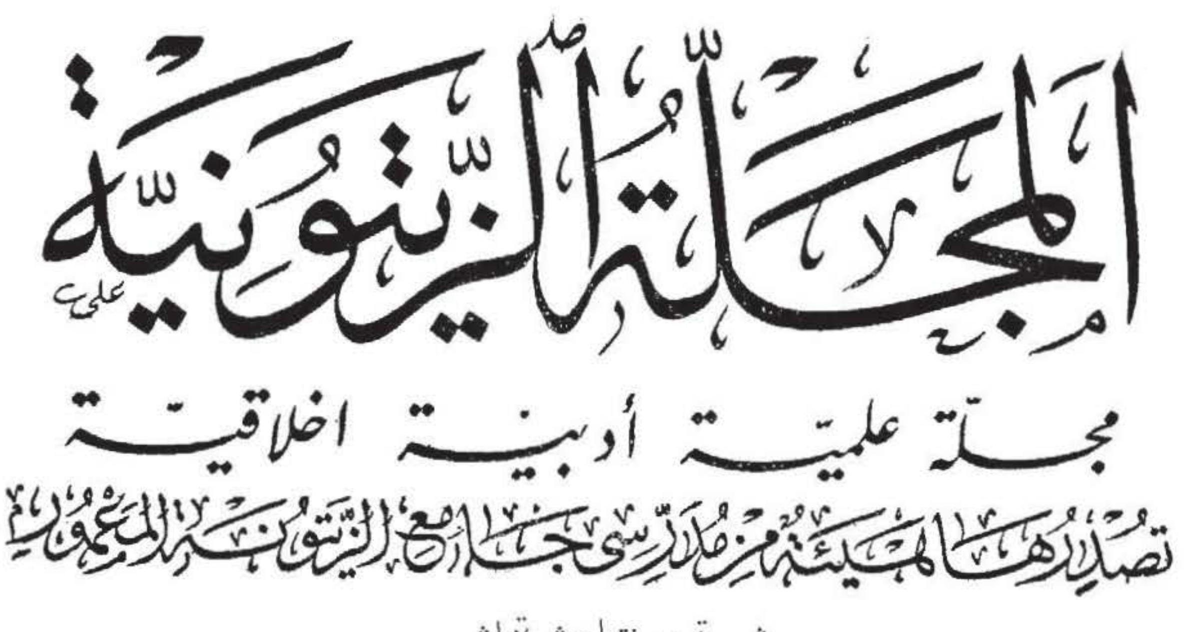
« في الخارج غير البلاد المذكورة فرنكات ٤٠

يخصم الربع للتلامذة

وصولات الاشتراك لا تعتبر الا اذا كانت ممضاة من امين المال

محمد الهادي بن القاضي

والمخابرات المالية لا تكون الا معه



شهرية وسنتها عشرة اشهر

الجزء الرابع	تونس - في صفر الخير ١٣٥٨ - افريل ١٩٣٩	المجلد الثالث

رئيس قلم التحرير :

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة والمدير :

محمد الشاذلي ابن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الثاني بجامع حموده باشا

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس - تليفون ٤٩-٢٦

المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧



أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

من تفسير العلامة الهمام الشيخ سيدي محمد الطاهر ابن عاشور شيخ الاسلام المالكي

أولئك على هدى من ربهم - الاشارة الى المتقين الذين اجرى عليهم من الصفات ما تقدم والاصل في الاشارة ان تعود الى ذات مشاهدة معينة الا ان العرب قد يخرجون بها عن الاصل فتعود الى ذات مستحضرة من الكلام بعد ان يجري من صفاتها واحوالها ما ينزلها منزلة الحاضر في ذهن المتكلم والسامع فان السامع اذا وعى تلك الصفات وكانت مهمة في بابها او غريبة في خير او ضده تاقت نفسه الى مشاهدة الموصوفين بها فيلوح المتكلم الى انه علم توقان نفس السامع لمشاهدة المتحدث عنه فيحاول احضاره له ويتخيل انه احضره حتى انه يشير اليه فيومىء بتلك الاشارة الى انه لا اوضح في تشخصه ولا اغنى في مشاهدته من تعرف تلك الصفات فتكفي الاشارة اليها ونظيره في غير باب الاشارة قول الشاعر : (واني من القوم الذين هم هم)

اي الذين يخبر عنهم بنفس اسمهم المخبر عنه هذا اصل الاستعمال في ايراد الاشارة بعد ذكر صفات مع عدم حضور المشار اليه ثم انهم قد يتبعون اسم الاشارة الوارد بعد تلك الاوصاف بأحكام فيدل ذلك على ان منشأ تلك الاحكام هو تلك الصفات المتقدمة على اسم الاشارة لانها لما كانت هي طريق الاستحضار بالاشارة لاهل تلك الصفات قامت الصفات مقام الذوات المشار اليها فكما ان الاحكام الواردة بعد اسماء الذوات تفيد انها ثابتة للمسميات فكذلك الاحكام الواردة بعد ما هو للصفات تفيد انها ثبتت للصفات فقوله اولئك على هدى من ربهم بمنزلة ان تقول ان تلك الاوصاف هي سبب تمكنهم من هدي ربهم اياهم ونظيره قول حاتم الطاءي

ولـه صعلـوك يسـاور همـه ويمضي على الاحداث والدهر مقدما

فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة ولا شبعة ان نالها عد مغنما

الى ان قال :

فذلك ان يهلك فحسنى ثناؤه وان عاش لم يقعد ضعيفا مذمما (١)

فقوله اولئك على هدى . جملة مستأنفة وهذا التقدير اظهر معنى وانسب بلاغة واسعد باستعمال اسم الاشارة في مثل هاته المواضع لانه اظهر في كون الاشارة لقصد التنويه بتلك الصفات المشار اليها ولما يرد بعد اسم الاشارة من الحكم الناشيء عنها وهذا لا يحصل الا بجعل اسم الاشارة مبتدأ اول في صدر جملة استئناف .

وقوله على هدى من ربهم . تمثيل لحالهم بأن شبهت هيئة تمكنهم من الهدى وثباتهم عليه والسير في طريق الخيرات بهيئة الراكب في الاعتلاء على المركوب والتمكن من تصريفه والقدرة على اراضته فشبهت حالتهم المنتزعة من متعدد بتلك الحالة المنتزعة من متعدد تشبيها ضمنيا دلت عليه كلمة على المفيدة للاستعلاء لان الاستعلاء اقوى انواع تمكن شيء من شيء ووجه دلالتها على ان المستعلى عليه مركوب دون ان يكون كرسيا او مسطبة مثلا لان ذلك هو الذي تسبق اليه افهامهم عند سماع ما يدل على الاستعلاء اذ الركوب هو اكثر انواع استعلائهم فهو الحاضر في اذهانهم ولذلك نراهم حين يصرحون بالمشبه به او يرمزون اليه ما يذكرون الا المركوب وعلائقه فيقولون جعل الغواية مركبا وامتطى الجمل وفي المقامات وربما اقتعد غارب الاغتراب وركب متن عمياء ويخبط خبط عشواء قال النابغة يهجو عامر ابن الطفيل الغنوي

فان يك عامر قد قال جهلا فان مطية الجهل الشباب

فتكون كلمة « على » هنا بعض المركب الدال على الهيئة المشبه بها على وجه الايجاز والتقدير أولئك على مطية الهدى فهي تمثيلية تصريحية الا ان المصرح به بعض المركب الدال لا جميعه وانما نكر هدى ولم يعرف باللام لمساواة التعريف التنكير هنا اذلو عرف لكان التعريف تعريف الجنس فرجح التنكير تمهيدا لوصفه بانه من عند ربهم ولان التنكير يفيد بالقرينة في مقام المدح انه ما يراد منه الافراد ولا النوعية فتعين قصد التعظيم على حد قول ابن خراش الهذلي(٢)

---

(١) الصعلوك بضم الصاد اصله الفقير ويطلق على المتلصص لان الفقر يدعوه الى التلصص لانهم ما كانوا يرضون باكتساب ينافي الشجاعة ويكسب المذلة كالسرقة والسؤال فحاتم يمدح الصعلوك الذي لا يقتصر على التلصص بل يكون بشجاعته عدة لقومه عند الحاجة

(٢) ابو خراش بكسر الخاء اسمه خويلد بن مرة الهذلي والخراش سمة تجعل للبعير فهو مخروش كان هذا الشاعر فارسا عداء يعدو على قدميه فيسبق الخيل . ادرك الجاهلية واسلم وله صحبة وتوفى في زمن عمر رضي الله عنه . والبيت من ابيات رثى بها خالد بن زهير الهذلي من سادة هذيل . وقوله فلا . قسم وهو تاكيد كانه يقول لا اقسم ثم يقسم ايذانا بعظم شان المقسم به وان الحالف به يخشى

فلا وابي الطير المربة في الضحى على خالد لقد وقعت على لحم

اي على لحم عظيم بقرينة المدح

واولئك هم المفلحون - مرجع الاشارة الثانية عين مرجع الاولى ووجه تكرير اسم الاشارة التنبيه على ان كلتا الاثرتين جديرة بالاعتناء والتنويه فلا تذكر احداهما تبعا للاخرى بل تخص بجملة واشارة خاصة ليكون اشتهارهم بذلك اشتهارا بكلتا الجملتين وانهم ممن يقال فيه كلا القولين

وقوله هم المفلحون - الضمير للفصل والتعريف في المفلحون للجنس وهو الاظهر اذ لا معهود هنا بحسب ظاهر الحال بل المقصود افادة ان هؤلاء مفلحون وتعريف المسند بلام الجنس اذا حمل على مسند اليه معرف افاد الاختصاص فيكون ضمير الفصل لمجرد تأكيد النسبة اي تاكيد الاختصاص والفلاح الفوز وصلاح الحال فيكون في احوال الدنيا واحوال الآخرة والمراد به في اصطلاح الدين الفوز بالنجاة من العذاب في الآخرة والفعل منه افلح اي صار ذا فلاح وانما اشتق منه الفعل بواسطة الهمزة الدالة على الصيرورة لانه لا يقع حدثا قائما بالذات بل هو جنس تحف افراده بمن قدرت له - قال في الكشاف انظر كيف كرر الله عز وجل التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله احد على طرق شتى وهي ذكر اسم الاشارة وتكريره وتعريف المفلحين وتوسيط ضمير الفصل بينه وبين اولئك ليبصرك مراتبهم ويرغبك في طلب ما طلبوا وينشطك لتقديم ما قدموا

(ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) هذا انتقال من الثناء على هذا الكتاب ووصف هديه واثر ذلك الهدي في الذين اهتدوا به والثناء عليهم الراجع الى الثناء على الكتاب لان كمال الثناء انما يظهر اذا تحققت ءاثار الصفة التي استحق بها الثناء ولما كان الضد بالضد يقدر انتقل الكلام على حال الذين لم يحصل لهم الاهتداء فنعى عليهم حالهم وسجل ان حرمانهم من الاهتداء بهديه انما كان من تلقاء انفسهم اذ نبوا بها عن ذلك فما كانوا من الذين يفكرون في عاقبة امورهم ويحذرون

الحنث فيهم بان لا يحلف . ولفظ الاب هنا مقحم على عادتهم في تعظيم المحلوف به ان يقولوا بابيك لانه حلف به وبابيه في المعنى . والمربة المقيمة من لرب بالمكان اقام. وقوله وقعت خطاب للطير وهو التفات وفي البيت تنويه بالميت اذ حلف بالطير الذي اكلت لحمه لان ذلك اكسبها عظمة وشرفا ودليل على عظم شانه انه تردد في الحلف بطيره ثم حلف بابيها وهذه الرواية في البيت في غاية البلاغة ونقل عن الزمخشري انه كان اذا انشده يقول ما افصحك يابيت المربة . وذكر التفتزاني في شرح الكشاف ان الموجود في ديوان الهذليين برواية اخرى وهي

لعمر ابي الطير المربة بالضحى على خالد لقد عكفن على لحم

على ان لعمر ابي قسم الشاعر بابيه والطير مرفوع مبتدأ وخبره قوله عكفن الخ وهو من العكوف وهو الملازمة ولا يخفى ان هاته الرواية تفيت معنى كمال التعظيم الثابت للمرثي بمدح الطير الآكلة للحمه على ان في هاته الرواية تكرير غير حسن وهو الجمع بين المربة وعكفن وبعضهم يذكر في لفظ الآية هنا وجوها فاسدة .

سوء العواقب فلم يكونوا من المتقين وكان سواء عندهم الانذار وعدمه فلم يتلقوا الانذار بالتأمل بل كان سواء والعدم عندهم وقد قرن في هذه الآيات فريقان فريق صمم على الكفر والعناد والمراد بهم هنا المشركون كما هو غالب اصطلاح القرءان في لفظ الذين كفروا وفريق اظهر الايمان خداعا وهم المنافقون المشار اليهم بقوله تعلى ومن الناس من يقول ءامنا بالله . وانما قطعت هاته الجملة عن التي قبلها لان بينهما كمال الانقطاع اذ الجمل السابقة لذكر الهدى والمهتدين وهذه لذكر الضالين فبينهما كمال الانقطاع لاجل التضاد وصدرت الجملة بان التي من شأنها التأكيد ورد الشك اما لمجرد الاهتمام بالخبر من غير قصد الى دفع شك لان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللامة وهو خطاب انف بحيث لم يسبق شك في وقوعه . ومجيء ان للاهتمام كثير في الكلام وهو في القرءان كثير وقد تكون ان هنا لرد الشك على اصلها بتخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لان حرص النبي على هداية الكافرين تجعله يطمع في نفع الانذار لهم وحاله كحال من شك في نفع الانذار او لان السامعين من المسلمين لما اجري على الكتاب الثناء ببلوغ الدرجة القصوى في الهداية يطمعون ان تؤثر هدايته في الكافرين المعرضين فجعلوا كالذين يشكون في ان يكون الانذار وعدمه سواء فاخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ونزل غير الشاك منزلة الشاك . والكفر بالضم اخفاء النعمة وبالفتح الستر مطلقا وهو مشتق من كفر اذا ستر ولما كان انكار الخالق وانكار كماله وانكار ما جاءت به رسله ضربا من كفران نعمته اطلق عليه اسم الكفر وغلب استعماله في هذا المعنى والموصول ياتي لما تاتي له اللام فاما ان يكون هنا لتعريف العهد مرادا منه قوم معهودون كابي جهل والوليد بن المغيرة وهذا بعيد لعدم انحصارهم واما ان يكون لتعريف الجنس اي جنس من ثبت له الكفر على ان المراد من الكفر ابلغ انواعه بقرينة مقابلته بالذين يؤمنون بالغيب والذين يؤمنون بما انزل فالمراد كافرون عرفوا بالمكابرة في الكفر والدوام عليه حتي صار الكفر هو حالتهم التي لا يعرفون الا بها فجعل صلة للموصول للتعريف بهم فيكون الفعل قد افاد قوة الكفر ولا بدع في ذلك اذ الفعل لما كان مدلوله نكرة كان صالحا لان يراد به ما يراد بالتنكير والحاصل انه ليس المراد من قوله الذين كفروا هنا ما اريد منه في نحو قوله تعلى قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ونحو قوله تعلى وقال الذين كفروا للذين ءامنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه . لان من اولئك من انتقل من الكفر الى الاسلام بعد ان كان اشد الناس على المسلمين مثل ابي سفيان . وقوله سواء عليهم آنذرتهم ام لم تنذرهم . سواء فيه اسم بمعنى الاستواء فهو اسم مصدر دل على ذلك لزوم افراده وتذكيره مع اختلاف موصوفاته ومخبراته فاذا اخبر به او وصف كان ذلك كالمصدر في ان المراد به معنى اسم الفاعل لقصد المبالغة . وقد قيل ان سواء اسم بمعنى المثل فيكون التزام افراده وتذكيره لان المثلية لا تتعدد وان تعدد موصوفها تقول هم رجال سواء لزيد بمعنى مثل لزيد . وانما ءي سواء بعلى هنا وفي غير موضع ولم يعلق بعند ونحوها للاشارة الى تمكن الاستواء عند المتكلم وانه لا مصرف له عنه ولا تردد له فيه (لايؤمنون) الا ظهر ان هذه الجملة مسوقة لتقرير معنى الجملة التي قبلها وهي سواء عليهم آنذرتهم الخ مستانفة ولذلك فصلت وليست تأكيدا للجملة الاولى ولا بيانا ولا بدلا ولا حالا من ضمير عليهم ولا خبرا وان قيل بجميع ذلك .



« باب » ما ينهى عن التحاسد والتدابر

وقوله تعالى : ومن شر حاسد اذا حسد (من صحيح البخاري)

حدثنا ابو اليمان اخبرنا سعيد عن الزهري قال حدثني انس ابن مالك رضي الله عنه ان رسول صلى الله عليه وسلم قال : لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام ❋

قد تقرر في الشريعة المطهرة حث الشارع على جلب المودة بين المسلمين وتالف أرواحهم وقلوبهم على الوجه المتين كما اشار الى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . وقد بين الشارع ما يحفظ هذا البنيان وما يفضي به الى التداعي والامتهان ومن أعظم الاصول المتكفلة بهذا الغرض هذا الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم : لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ـ الحديث . والتباغض تفاعل من البغض وهو خلاف المحبة وأصل التفاعل أن يكون بين اثنين وقد يكون من واحد كما تقرر في العربية وهو المراد هنا في الافعال الثلاثة . والتدابر كما في شرح مسلم للنووي المعاداة وقيل المقاطعة كما في العمدة وقال إمام دار الهجرة : لا أحسب التدابر الا الاعراض عن السلام يدبر عنه بوجهه . والتحاسد من الحسد وهو كما فسره الغزالي في الاحياء كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه اهـ . قال شهاب الدين القرافي في الفرق الثامن والخمسين بعد المائتين : والحسد حسدان احدهما تمني زوال النعمة وتحولها للحاسد . ثانيهما تمني زوال النعمة من غير طلب حصولها للحاسد وهو شر الحسدين لانه طلب المفسدة الصرفة من غير معارض عادي ولا طبيعي . وهو حرام بالكتاب والسنة والاجماع . فاما الكتاب فقوله سبحانه وتعالى : أم يحسدون الناس على ما آتهم الله من فضله . وقوله سبحانه وتعالى : ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض . أي لا تتمنوا زواله لان قرينة النهي دلت على حذف المضاف . وأما السنة فحديث الباب وغيره . وأما الاجماع فقد أجمعت الايمة على تحريمه اهـ . ومن أدلة تحريمه في التنزيل قوله جلت عظمته : ومن شر حاسد اذا حسد . قال القاضي

❋ هذا درس من دروس ختم الحديث الشريف التي كان قام بها العلامة المقدس الشيخ الشاذلي ابن القاضي بجامع حمودة باشا المرادي

البيضاوي وتبعه مفتي السلطنة أبو السعود في التفسير معنى قوله سبحانه وتعالى : اذا حسد. إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه بترتيب مقدمات الشر ومبادي الاضرار بالمحسود قولا أو فعلا اه. قال الشهاب القنوي في حواشيه. أوله بما ذكر ليندفع اشكال في الآية وهو ان قوله سبحانه وتعالى اذا حسد، مع قواه ومن شر حاسد، خال عن الفائدة بحسب الظاهر وحاصل الدفع ان فائدة التقييد به هي ان ضرر الحسد قبل اظهار الحاسد إياه إنما يحيق بالحاسد لان الحاسد يحصل له الغم في الدنيا بسرور المحسود اه. وهل يأثم بذلك حتى يستحق العقاب ؟ قال الغزالي في الاحياء هو محل اجتهاد فقد ذهب ذاهبون الى أنه لا يأثم بمجرد محبة زوال النعمة عن المحسود اذا لم يظهر الحسد على جوارحه قال والاظهر انه اذا لم يظهر الحسد على جوارحه فأما مع فعل للقلب هو ميله عن تلك المحبة ومقت نفسه عليها بمحض العقل حتى يود أنه تكون له حيلة في إزالة تلك المحبة أولا فان كان الاول فهو معفو عنه قطعا لانه لا يدخل تحت الاختيار أكثر من ذلك وإن كان الثاني فالظاهر أنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة تلك المحبة وضعفها. نعم هذا النوع ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل معصية بينه وبين الله سبحانه وتعالى. والدليل على هذا ظواهر الآيات والاخبار قال سبحانه وتعالى : ان تمسسكم حسنة تسؤهم. وقال سبحانه وتعالى : ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء. ومن الاخبار حديث الباب وغيره فانها تدل بظواهرها على أن كل حاسد آثم ويبعد من حيث المعنى أن يعفى عن العبد في إرادته مساءة مسلم واشتمال قلبه على ذلك من غير ميل قلبه عن تلك الارادة وكراهته لها اه. قلت لعل ما ذهب اليه القوم مبني على ما هو المقرر في الاصول والكلام من أنه لا تكليف إلا بفعل ومجرد المحبة المذكورة من غير انضمام شيء آخر اليها من الافعال ليس بفعل المكلف لانها من الامور الباطنية الراجعة الى الكيفيات النفسانية ولا تكليف بها من حيث هي وما ذهب اليه الغزالي مبني على ذلك أيضا الا ان الاثم المترتب ليس على مجرد تلك المحبة المذكورة بل على ترك فعل النفس وهو ميل قلبه عن تلك المحبة وهو فعل من أفعال النفس ولما لم يفعل ذلك فقد ترك ما هو مطلوب منه وبتركه ذلك كان آثما. وسيأتي لهذا زيادة تحرير إن شاء الله تعالى. وعلى هذا فيحصل التوفيق ويكون الخلاف لفظيا فان قلت معنى قوله جل جلاله ومن شر حاسد إذا حسد مستفاد من قوله سبحانه وتعالى أول السورة من شر ما خلق فانه عام في كل ما يستعاذ منه فما فائدة الاستعاذة بعده من الحسد ؟ قلت الفائدة كما ذكره الرازي في التفسير هي التنبيه على أن الحسد من أعظم أنواع الشرور اه. ويؤيده ما نقله صاحب روح البيان عن الحسين بن الفضل رحمه الله تعالى أن الله سبحانه وتعالى ذكر الشرور في هذه السورة ثم ختمها بالحسد ليظهر أنه أخبث الطبائع كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما اه. ولاجل خبثه قال الغزالي هو من الامراض القلبية ولا دواء لها الا العلم والعمل فاما العلم النافع في ذلك فهو أن يعرف الحاسد أن الحسد ضرر عليه في الدين والدنيا وانه لا ضرر على المحسود في الدين والدنيا بل ينتفع به فيهما

ومهما عرف الحاسد ذلك فارق الحسد. أما كونه ضررا عليه في الدين فان فيه كراهة نعمة الله التي قسمها بين عباده وعدم نصيحتهلهم وقد قال صلى الله عليه وسلم كما في البخاري: الدين النصيحة لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم. واما كونه ضررا عليه في الدنيا فان الحاسد يتالم بحسده ويتعذب به. واما انه لا ضرر على المحسود في الدين والدنيا فواضح لان النعمة لا تزول عنه بحسد الحاسد بل ما قدره الله سبحانه وتعالى فلا بد وان يدوم الى اجل معلوم. واما انه ينتفع به فيهما فواضح ايضا. اما منفعته في الدين فهو انه مظلوم من جهة الحاسد. واما منفعته في الدنيا فهو ان اهم غرضه ان يرى حاسده معذبا بعذاب الحسد اذ لا عذاب اعظم من عذابه. واما العمل فهو ان يحكم الحسد فكل ما يتقاضاه الحسد من قول او فعل فينبغي ان يكلف نفسه نقيضه فان بعثه الحسد على القدح في المحسود كلف لسانه المدح له والثناء عليه وان بعثه على كف الانعام عليه كلف نفسه الزيادة في الانعام عليه وهكذا ثم ان الحسد يقابله الغبطة قال شهاب الدين القرافي في الفرق الثامن والخمسين بعد المائتين الغبطة تمني حصول مثل نعمة الغير من غير تعرض لطلب زوالها عن صاحبها وهي مباحة لعدم تعلقها بمفسدة البتة وقد يعبر عنها بلفظ الحسد قال صلى الله عليه وسلم لا حسد الا في اثنتين رجل اتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ورجل اتاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل والنهار. أي لا غبطة الا في هاتين اه فان قلت ما قرره الشهاب القرافي من ان الغبطة مباحة فقط حيث اقتصر عليه مع ان المقام للبيان ينافيه ما قرره الغزالي في الاحياء من انها تكون واجبة ومندوبة ومباحة فاما الواجبة ففيما اذا كانت نعمة الغير دينية واجبة كالصلاة والزكاة ونحوهما فانه يجب عليه ان يتمنى مثلها لنفسه حتى يكون مثل ذلك الغير لانه اذا لم يحب ذلك يكون راضيا بالمعصية وذلك حرام. واما المندوبة ففيما اذا كانت نعمة الغير دينية غير واجبة كفضائل الاعمال من انفاق المال في المكارم والصدقات واما المباحة ففيما اذا كانت نعمة الغير نعمة يتنعم بها على وجه مباح وكل ذلك يرجع الى ارادة مساواته له واللحوق به في النعمة وليس فيه كراهة تلك النعمة اه قلت لا تنافي بينهما لان الشهاب القرافي لم يرد بالاباحة التخيير بين الفعل والترك الذي هو احد معنيين للاباحة بل اراد بالاباحة الاذن وعدم الحرج في الفعل وهو المعنى الثاني لها كما قرره هو بنفسه في شرح المحصول قال: وهو شامل للواجب والمندوب والمباح بالمعنى الاول والمكروه. وقرره ابو اسحاق الشاطبي في الموافقات حيث قال: المباح يطلق باطلاقين من حيث هو مخير فيه بين الفعل والترك ومن حيث يقال لا حرج فيه اه. وقوله صلى الله عليه وسلم لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا. نهي عن التباغض والتحاسد والتدابر وليس المراد خصوص التفاعل كما تقدم وقد تقرر في الاصول ان النهي عن الشيء يقتضي عدم حسنه بمعنى ان المنهي عنه متعلق الذم عاجلا والعقاب آجلا بحكم الشارع وعدم الحسن على قسمين اما لذاته وضعا كالظلم وهو التعدي على الغير من غير وجه شرعي ومن هذا القسم المنهي عنه في التباغض

والتدابر والتحاسد فان المنهي عنه في التباغض والتدابر ما يسبقهما من الاهواء المضلة الموجبة لهما والمنهي عنه في التحاسد ما يترتب عليه من البغي والظلم بالجوارح كما ياتي تحريره او شرعا كبيع الحر فان الشرع جعل محل البيع المال المتقوم حال العقد لتحصل الفائدة والحر ليس بمال وحكم هذا القسم بفرديه عدم المشروعية مطلقا لا بأصله ولا بوصفه وهو البطلان كما تقرر في الاصول. واما لغيره بمعنى ان عدم حسنه لامر خارج عنه وهذا الامر الخارج اما وصف لازم كالبيع بالشرط الذي لا يقتضيه العقد فان النهي عنه لامر خارج وهو ما فارق العقد من الشرط وهو وصف لازم له لاينفك عنه ومن هذا النوع النهي عن جميع الافعال الشرعية الخالي عن القرينة الدالة على ان النهي عنه لعدم الحسن لذاته او لغيره والمقرون بالقرينة الدالة على ان النهي عنه لعدم الحسن لغيره وحكمه عدم المشروعية بوصفه والمشروعية باصله وهو الفساد عندنا . واما مجاور كالصلاة في الارض المغصوبة فان النهي عنها لامر خارج مجاور لها وهو شغل المكان من حيث انه تعد على ملك المغصوب منه وهو ليس بوصف لازم بل يمكن انفكاكه بان ياذن مالكه له في الحال او ينتقل اليه ملك الارض في الحال بهبة ونحوها وحكم هذا النوع الكراهة التحريمية اجماعا بيننا وبين الشافعية كما صرح به صدر الشريعة في التوضيح . وخالفونا فيما قبله فقالوا ان النهي عن الافعال الشرعية يقتضي عدم الحسن لذاته وحكمه عدم المشروعية مطلقا لا باصله ولا بوصفه وهو البطلان . وخالفت الحنابلة في الجميع فقالوا ان النهي عن الشرعيات للوصف او للمجاور يقتضي عدم الحسن لذاته وحكمه عدم المشروعية مطلقا لا باصله ولا بوصفه وهو البطلان وبناء على ما تقرر فنحن قلنا بصحة اصل العقد الذي فيه شرط لا يقتضيه العقد دون وصفه ويترتب عليه انه اذا قبض المشتري المعقود عليه ملكه لصحة اصل العقد لتوفر اركانه من العاقدين والمعقود عليه وشروط انعقاده من الاهلية ونحوها فكان اصل العقد سالما لا فساد فيه الا ان ملكه له ليس مباحا شرعا حتى انه يلزم كل واحد من متعاقديه فسخه ما دام لم يتعذر الفسخ وللقاضي اذا اطلع عليه فسخه ما لم يتعذر أيضا أما إذا تعذر بأن وقفه وقفا صحيحا أو وهبه وسلمه للموهوب له فإنه يلزم العقد ويتقرر الملك الاصلي ويلزمه التوبة لارتكابه عدم المباح . وقالت الشافعية والحنابلة بفساد أصل العقد ووصفه حتى إن المشتري إذا قبضه لم يملكه أصلا ضرورة أن ملكه له إنما هو بالعقد ولا عقد أصلا فلا يترتب عليه الملك فلا ينفذ شيء من تصرفات المشتري فيه . ولما خالفت الحنابلة في مسئلة المجاور أيضا قالوا ببطلان الصلاة في الارض المغصوبة وبطلان الوضوء بالماء المغصوب على ما نقله شهاب الدين القرافي في الفرق السبعين بناء على ان النهي عندهم يعتمد المفاسد في أصل الماهية فمهما ورد نهي من الشارع أبطلوا ذلك التصرف سواء كان من العبادات أو المعاملات لفساد نفس الماهية المنهي عنها فكانت معدومة شرعا فلا تترتب آثارها . استدلت الحنفية بدليلين كما في مختصر ابن الحاجب الاصولي أحدهما

ان النهي لو لم يدل على الصحة لكان المنهي عنه غير الشرعي. قال العضد في بيانه واللازم باطل أما الملازمة فلان المنهي عنه إذا لم يكن صحيحا لم يكن شرعيا معتبرا لان الشرعي المعتبر هو الصحيح وأما بطلان اللازم أعني كون المنهي عنه غير الشرعي فلانا نعلم ان المنهي عنه في صوم يوم النحر والصلاة في الاوقات المكروهة انما هو الصوم والصلاة الشرعيين لا الامساك والدعاء وأجاب عنه ابن الحاجب في المختصر بمنع ان الشرعي هو المعتبر شرعا. قال العضد بل الشرعي هو ما يسميه الشارع بذلك الاسم وهو الصورة المعينة سواء كانت صحيحة أو لا كما يقال صلاة صحيحة وصلاة فاسدة والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم دعي الصلاة أيام اقرائك. وصلاة الحائض لا تصح أصلا لا بأصلها ولا بوصفها اتفاقا اه قال الفاضل الابهري في حواشي العضد وحاصل الجواب ان الحنفية ان أرادوا بالشرعي المعتبر شرعا كما وقع التقييد به في الاستدلال فالملازمة صحيحة وقولهم اللازم باطل ممنوع فانا نلتزم ان المنهي عنه غير المعتبر شرعا وإنما هو ما يسميه الشارع بذلك الاسم سواء كان معتبرا أم لا وإن أرادوا بالشرعي ما يسميه الشارع بذلك الاسم سواء كان صحيحا أو لا فالملازمة ممنوعة لانه لا يلزم من كون النهي لا يدل على صحة أصل المنهي عنه أن يكون المنهي عنه غير الذي يسميه الشارع بالاسم المعين اه وأجاب عن المنع المذكور المحقق الفنري في فصول البدائع بأن المراد بالشرعي هو المعتبر شرعا ولا يصح إرادة المعنى الآخر حتى يقع منع بطلان اللازم والدليل عليه انه لو كان المراد بالشرعي ما يسميه الشارع بالاسم المعين سواء كان صحيحا أو لا لكان المنهي عنه هو مجرد الصورة مطلقا فيكون مجرد الصورة هو المعتبر في الثواب بقصد اجتنابه والعقاب بارتكابه وليس كذلك قطعا لان الصورة بدون شرائطها كصورة الصلاة بدون النية واستقبال القبلة وغيرهما وكصورة البيع بدون شرائط انعقاده من أهلية المتعاقدين ونحوه عبث لا يترتب عليه ثواب ذلك الفعل المعد له شرعا ولا عقابه لان مفسدة النهي انما هي في الاتيان بالمقيد بقيوده المعتبرة فيه لا بمجرد صورته وإلا لزم أن يكون كل أحد مثابا بترك صور المناهي وإن لم تنعقد أسبابها وشرائط انعقادها وليس كذلك أجماعا فتعين أن المنهي عنه في الافعال الشرعية هو الشرعي المعتبر لا ما يسمى به مطلقا. وما استند اليه العضد من الحديث حيث دل على أن المنهي عنه فيه ليس بصحيح لا بأصله ولا بوصفه اجماعا لا يدل له لان النهي هنا مجاز عن النفي اه قال السيد الشريف في حواشي التلويح للدليل الذي دل على ذلك وهو اشتراط الطهارة عن الحيض وغيره في الصلاة الثابت بالنص على وفق القياس والكلام في النهي إذا كان على حقيقته فلم يكن عدم صحة الاصل والوصف من حيث كونه نهيا عن امر شرعي بل من حيث كونه نفيا له وهو معنى النسخ ومثله قوله تعلى ولا تنكحوا ما نكح ءاباؤكم من النساء والنهي عن بيع المضامين والملاقيح وما كان نحو ذلك

ثانيهما ان المنهي عنه لو لم يكن صحيحا لكان ممتنعا فلا يمنع عنه لان المنع عن الممتنع عبث وهو

محال قال سعد الدين التفتازاني في التلويح وتحقيقه ان المنهي عنه يجب ان يكون ممكن الوجود متصوره بحيث لو اقدم عليه يوجد حتى يكون العبد مبتلى بين ان يقدم على الفعل فيعاقب وبين أن يكف عنه قصدا فيثاب فيكون كل من الاتيان والترك مضافا الى اختياره ولو لم يكن ممكنا لكان عدم وقوع المنهي عنه لعدم امكانه وامتناعه في نفسه لا لامتناع العبد عنه باختياره فلا يثاب عليه لان النهي حينئذ يصير نسخا وهو غير النسخ فان النسخ لبيان ان الفعل لم يبق متصور الوجود شرعا كالتوجه الى بيت المقدس ونحوه واذا قلنا انه ممتنع شرعا فورود النهي عنه مع كونه ممتنعا شرعا عبث وهو محال. واجاب عنه ابن الحاجب في المختصر بمنع كونه عبثا وتفصيله كما في العضد ان النهي لا يكون عبثا مع القول بانه ممتنع الوقوع الا لو كان امتناعه بغير النهي كما قالوا في تحصيل الحاصل انه اذا كان حاصلا بهذا التحصيل لم يكن عبثا كذلك هنا نقول ان امتناعه بهذا المنع فلا يكون عبثا . واجاب عن المنع المذكور السيد الشريف في حواشي التلويح بان القول بذلك ينفي الاختيار ويعدم الابتلاء لانه اذا كان ممتنعا فهذا النهي لا يكون وجوده في المستقبل متصورا شرعا اذ تصوره الشرعي لا يكون الا بمشروعيته واذا فاتت مشروعيته امتنع وجوده الشرعي لا محالة فبطل الاختيار وسقط الابتلاء فعاد على موضوعه بالنقض لان النهي ابتلاء واختبار كالامر. واجاب عن الاستدلال المذكور الامام الغزالي في المستصفى بتسليم انه لا بد من امكان المنهي عنه بعد النهي لكن نمنع انه لا بد من الامكان الشرعي بل الامكان اللغوي كاف . وكون المامورات مثل الصلاة والصوم والبيع مستعملة في معانيها الشرعية والمنهيات في المعاني اللغوية فانما ذلك للعرف الطاري بين اهل الشرع في المامورات وما وجدنا ذلك العرف في المنهيات فبقيت على معانيها اللغوية اه واجاب عنه صدر الشريعة في التوضيح بان امكان المعنى اللغوي لا يكفي بل لا بد من امكان المعنى الشرعي لان المعنى اللغوي الذي هو مجرد القول مثلا في البيع وهو بعت واشتريت من غير اعتبار الربط الشرعي بينهما المحصل لمعنى شرعي وهو البيع الذي يترتب عليه اثره من الملك ونحوه لا يوجب المفسدة التي نهي عن الفعل لاجلها فان المعنى اللغوي لا فساد فيه حتى ينهى عنه . قال في التلويح ونحن نقطع بان الحائض انما نهيت عما سماه الشارع صوما وصلاة لا عن نفس الامساك والدعاء اه

وقال المحقق منلا خسرو في مرءات الاصول : والمتعارف ان كل فعل نهي عنه فانما يعتبر امكانه بالنظر الى ما ينسب اليه من الحس والعقل والشرع فاذا كان الناهي الشارع وجب ان يكون المنهي عنه شرعيا فوجب امكانه شرعا حتى لا يعد عبثا اه

واستدلت الشافعية رضي الله عنهم بدليلين احدهما ان المنهي عنه لو كان صحيحا لكان مشروعا واللازم باطل لان اقل درجات المشروعية الاباحة وهي منتفية اجماعا بيننا وبينكم لعدم صحة اجتماعها مع النهي ضرورة ان المنهي عنه حرام فلا يكون مباحا فلا يكون مشروعا فالقول بانه صحيح غير مشروع جمع بين متنافيين . واجاب عنه اصحابنا كصدر الشريعة وغيره بانهم ان ارادوا انه يلزم من

القول بصحة اصل المنهي عنه القول بمشروعية الاصل والوصف فالملازمة ممنوعة لانه لا يلزم من كون اصل الماهية صحيحا ان يكون هو ووصفه مشروعين وان ارادوا انه يلزم من صحة الاصل مشروعيته فقط لا مشروعيته ووصفه فالملازمة مسلمة وبطلان اللازم ممنوع لان الذي قلنا بصحته اصله والذي قلنا بعدم مشروعيته وعدم اباحته وصفه فلا تنافي بين القول بالصحة والقول بعدم المشروعية لعدم توار دهما على محل واحد. وقال صدر الشريعة فنحن نقول بصحته لا باباحته والاثر من الملك ونحوه مترتب على الصحة اه قال المحقق منلا خسرو في مرءات الاصول : والمشروعات تحتمل هذا المعنى كالاحرام فان المحرم اذا أفسد حجه قبل الوقوف بعرفة يفسد احرامه ويجب عليه المضي في اعمال الحج حتى لو ارتكب بعد ذلك محظورا يجب عليه الجزاء وهو دليل بقاء المشروعية والا لما وجب عليه الجزاء ويجب عليه القضاء من قابل وهو دليل الفساد والا لما وجب عليه القضاء فالمشروعية وعدم الاباحة من جهتين مختلفتين فالمشروعية بالنظر للاصل وعدم الاباحة بالنظر للوصف اه

ثانيهما ان النهي حقيقة في اقتضاء عدم الحسن لذاته كالامر في كونه حقيقة في اقتضاء الحسن لذاته فكما ان المامور به يكون حسنا لذاته الا لدليل يدل على خلافه كذلك المنهي عنه يكون غير حسن لذاته الا لدليل يدل على خلافه بناء على ان المطلق يتناول الكامل

وحاصله ان مقتضى النهي حقيقة هو عدم الحسن الكامل وهو ما كان عدم حسنه لذاته وعدم الحسن لغيره قاصر وليس هو المقتضى حقيقة والعدول عن المقتضى الحقيقي الى المقتضى المجازي بلا موجب لا وجه له . واجاب عنه صدر الشريعة في التوضيح بان كمال المقتضى الذي هو عدم الحسن لذاته غير ممكن اعتباره هنا لانه لو اعتبر كاملا لبطل مقتضيه وهو النهي حيث لا يبقى على حاله فانه يكون حينئذ نسخا لمعنى النهي ولا يجوز اخراج الشيء عن معناه الحقيقي الا لدليل فاعتبار المقتضى المجازي مع بقاء اصل معنى النهي على حقيقته هو الواجب وما ذكروا من مسئلة الامر فهو كما قالوا لان الكمال هناك يحقق معنى الامر ويقرره اه

وحاصله كما في التلويح ان النهي يقتضي عدم الحسن والمنهي عنه يقتضي الامكان ولا بد من رعاية الامرين وذلك بان يحمل عدم الحسن الذي هو مقتضى النهي على عدم الحسن لغيره وهو لا ينافي الصحة والامكان فيكون في ذلك محافظة على مقتضى النهي وهو عدم الحسن وعلى المقتضي وهو النهي بان لا يكون نهيا عن غير الممكن وهو المستحيل بخلاف ما اذا حمل عدم الحسن الذي هو مقتضى النهي على عدم الحسن لذاته وحكم ببطلان المنهي عنه فانه يلزم اسقاط النهي واخراجه عن معناه الذي وضع له من الاختبار والابتلاء وجعله لغوا عبثا ولا يخفى ان ذلك امر محال

وقوله صلى الله عليه وسلم وكونوا عباد الله اخوانا امر بان يكونوا اخوانا لانهم مستوون في كونهم عباد الله وملتهم ملة واحدة فوجب عليهم ان يكونوا اخوانا . فان قلت الامر بان يكونوا

اخوانا كالنهي السابق عن التباغض والتحاسد والتدابر امر بما لا يطاق ونهي عما لا يطاق وذلك لان هذه صفات قلبية لا دخل لقدرة العبد فيها اما كون الشخص يكون اخا لغيره فهذا من حيث ذاته لا قدرة له عليه لانه ليس بفعل له لا جارحي ولا قلبي وكل ما ليس بفعل له لا قدرة له عليه فلا يصح التكليف به فهو نظير قوله صلى الله عليه وسلم كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . واما البغض والحسد والتدابر فهي من الصفات القلبية كما صرح به الغزالي في الاحياء وقد تقرر ان صفات القلوب لا قدرة للانسان على اثباتها ولا على نفيها . ففي الحديث جبلت القلوب على حب من احسن اليها وبغض من اساء اليها . وحيث كان امر الصفات القلبية التي لا قدرة للانسان على دفعها بالتكليف لدفعها او اثباتها تكليف بما لا يطاق وهو وان جاز عقلا كما تقرر في الوصول الا انه لم يجز شرعا كما صرح به ابو اسحاق الشاطبي في الموافقات فما معنى التكليف بهذه الاشياء امرا ونهيا حتى يترتب على ذلك الثواب والعقاب ؟

قلت قرر ابو اسحاق الشاطبي في الموافقات انه اذا ظهر من الشارع في بادىء الرأي القصد الى التكليف بما لا يدخل تحت قدرة العبد فذلك راجع في التحقيق الى سوابقه او لواحقه او قرائنه . فقوله سبحانه وتعلى « فلا تموتن الا وانتم مسلمون » وقوله صلى الله عليه وسلم كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . وقوله صلى الله عليه وسلم لا تمت وانت ظالم . ليس المطلوب منها الا ما يدخل تحت القدرة وهو الاسلام والكف عن القتل وترك الظلم . فان الاوصاف التي طبع عليها الانسان كالشهوة الى الطعام والشراب لا يطلب برفعها ولا ما غرز في الجبلة منها فانه من تكليف ما لا يطاق ومثله لا يقصد الشارع طلبا له ولا نهيا عنه ولكن يطلب قهر النفس على الجنوح والميل الى ما لا يحل وارسالها بقدر الاعتدال في ما يحل فيكون التكليف بها راجعا الى ما ينشأ من الافعال من جهة تلك الاوصاف وهو داخل تحت كسب المكلف اه وبناء على هذا فكون المخاطبين مأمورين بان يكونوا اخوانا ومنهيين عن البغض والتدابر والحسد فانما هو باعتبار ما يسبق ذلك او يلحقه فان الامر بما ذكر انما هو امر بالمعاملة والمعاشرة التي تكون على وجه معاملة الاخوان ومعاشرتهم في المودة والرفق والشفقة والملاطفة والتعاون في الخير مع صفاء القلوب والنصيحة بكل حال كما قرره النووي في شرح مسلم والنهي عن البغض انما هو نهي عن الاهواء المضلة الموجبة له . قال الغزالي في الاحياء : وذلك مثل الممارات والمضادة في المقاصد والغدر والهزل بالغير والتعيير وغير ذلك . والنهي عن الحسد نهي عما يلحقه من البغي والظلم بالجوارح من اللسان وغيره ولذا قال صلى الله عليه وسلم اذا حسدت فلا تبغ الحديث . ثم قال ابو اسحاق الشاطبي : ان الصفات القلبية على قسمين منها ما كان نتيجة عمل كالعلم والحب فان تحصيل العلم بالنظر المتقدم عليه وتحصيل الحب بالنظر في نعم المنعم وكثرة احسانه للمنعم عليه ومثل هذه الصفات يتعلق بها الثواب والعقاب من حيث انها مسببات عن اسباب مكتسبة . ولا

يقال كيف يثاب او يعاقب على ما لم يفعل . لانا نقول ان الثواب والعقاب انما ترتب في الحقيقة على ما فعله وتعاطاه لا على ما لم يفعله لكن الفعل يعتبر شرعا بما يكون ناشئا عنه من المصالح او المفاسد ومنها ما كان فطريا أي جبليا طبع عليه الانسان وذلك مثل الشجاعة والجبن والاناة والعجلة ومثل هذه الصفات يتبعها بلابد افعال اكتسابية فالتكليف بها تكليف بالافعال الناشئة عنها لا بما نشأت عنه تلك الافعال من تلك الصفات فالثواب والعقاب على تلك الصفات من حيث تلك الافعال لا من حيث ذاتها لان الثواب والعقاب لا يتعلقان بما هو غير مقدور المكلف . وما ورد في الشريعة من تعلق الحب والبغض بها كقوله صلى الله عليه وسلم : ان الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية . وقوله صلى الله عليه وسلم : ان الله يحب معالي الاخلاق ويكره سفاسفها ونحو ذلك فذلك من حيث متعلقاتها من الافعال فان الحب والبغض اما راجعان الى صفات الافعال على رأي قوم ومعناهما الانعام والانتقام ، واما راجعان الى صفات الذات كارادة الانعام والانتقام على رأي آخرين . وعلى كلا الوجهين فهما راجعان للانعام والانتقام . وهما عين الثواب والعقاب . فيكون تعلقهما بهذه الاوصاف من حيث متعلقاتها التي هي افعال اكتسابية

والعطف في قوله : وكونوا عباد الله اخوانا من باب عطف اللازم ، لانه يلزم من نهيهم عن الامور المذكورة امرهم باضدادها . ويجمع ذلك قوله : وكونوا عباد الله اخوانا . وصرح به لزيادة الاهتمام بعقد المودة بين المسلمين

وقوله صلى الله عليه وسلم : ولا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلاثة أيام : قال النووي : في شرح مسلم قال العلماء في هذا الحديث تحريم الهجر بين المسلمين اكثر من ثلاثة ايام واباحتها في الثلاثة . والاول بنص الحديث والثاني بمفهومه على مذهب من يحتج بالمفهوم . قالوا وانما عفي عن الهجر في الثلاثة ليذهب ذلك العارض ، قال في الارشاد وذلك لان الغالب ان ما جبل عليه الانسان من الغضب ونحوه يزول عن المؤمن او يقل بعد الثلاثة بخلافه فيها

واما على مذهب من لا يحتج بذلك فليس في الحديث دلالة على اباحة الهجر في الثلاثة

قال الابي في شرح مسلم : فيكون حكم الهجر في الثلاثة مسكوتا عنه فيطلب في الشرع اه

قلت لم أر من نقل من شراح الحديث ولا من اصحابنا في كتبهم نصا في اباحة الهجر في الثلاثة وحينئذ فنرجع الى قاعدة هل الاصل في الاشياء الاباحة او التحريم او التوقف ؟ قال في الاشباه : ذهب الشافعي الى ان الاصل في الاشياء الاباحة حتى يدل الدليل على عدم الاباحة . قال الامام النسفي في شرحه للمنار : وهو مذهب بعض الحنيفة ومنهم الكرخي . وذهب بعض اصحاب الحديث الى ان الاصل فيها الحظر ونسب هذا القول الى ابي حنيفة . وذهب اصحابنا الى ان الاصل فيها التوقف بمعنى

الفتاوى والاحكام

الوقف في الاسلام

بقلم الاستاذ العلامة الهمام سيدي محمد
ابن يوسف شيخ الاسلام الحنفي

أصل الوقف بنوعيه الخيري والاهلي صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم روى الامام الخصاف بسنده الى سعد بن معاذ ان اول حبس في الاسلام صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسنده الى المسور بن رفاعة عن ابن كعب انه قال اول صدقة كانت في الاسلام وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لابن كعب الناس يقولون صدقة عمر اول . فقال قتل مخيريق باحد على راس اثنين وثلاثين شهرا من مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) واوصى ان أصبت فاموالي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقبضها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتصدق بها . وهذا قبل ما تصدق به عمر وانما تصدق عمر بثمغ (٢) حين رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر سنة سبع من الهجرة .

وبروايته عن محمد بن بشر بن حميد عن أبيه قال سمعت عمر بن عبد العزيز في خلافته يقول سمعت بالمدينة

أنه لابد من حكم لكنا لم نقف عليه بالعقل .

وقال صاحب الهداية في فصل الحداد : ان الاباحة اصل . ويظهر اثر الخلاف في المسكوت عنه اه وحيث لا نص في المسالة تجري على هذا الخلاف كما لا يخفى

ثم انه اختلف فيما تنقطع به الهجرة . فقال اكثر العلماء ان الهجرة تزول بمجرد السلام ورده . وبه قال مالك في رواية عنه ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم المروي في صحيح البخاري وغيره : لا يحل لرجل ان يهجر اخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام . وقال أحمد بن حنبل وابن قاسم لا يبرأ من الهجرة الا بعوده الى الحال التي كان عليها اولا وفي قوله اخاه اشعار بالعلية ومفهومه أنه ان خالف هذه الشريطة وقطع هذه الرابطة جاز هجرانه فوق ثلاثة . فان هجرة اهل الاهواء والبدع دائمة على مر الاوقات مالم تظهر التوبة والرجوع الى الحق . وصرح الطبري بجواز هجرة اهل المعاصي وهم الفساق

والتقييد بالمسلم في الخطاب لانه هو الذي يقبل الخطاب وينتفع به بخلاف الكافر فانه لا ينتفع به اصلا ما دام على الكفر . وهذا شامل لكل خطاب فيشمل خطاب الدعاء المأمور به في قوله سبحانه وتعالى : ادعوني أستجب لكم . اه

---

(١) في السنة الثالثة (٢) الارض التي اصابها من خيبر كما ياتي عن صحيح البخاري

والناس بها يومئذ كثير من مشيخة المهاجرين والانصار ان حوايط رسول الله صلى الله عليه وسلم السبعة التي وقف (١) من اموال مخيريق ثم دعا بتمر منها وقال كتب الي ابوبكر بن حزم ان هذا التمر من العذق (٢) الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل منه وبسنده الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث صفايا وكانت بنو النضير حبسا لنوائبه وكانت فدك لابن السبيل وكانت خيبر قد جزأها ثلاثة اجزاء جزء للمسلمين وجزء كان ينفق منه على اهله فان فضل منه رده على فقراء المهاجرين(٣) اهـ.

وفي هذه الاخبار وامثالها ملامح من النظر ومواهب الاجتهاد منها عدم اشتراط الحوز وجواز الوقف على النفس وجواز ولاية الواقف كما هو قول ابي يوسف في المسائل الثلاث

اما وقف سيدنا عمر رضي الله عنه ففي صحيح البخاري من كتاب الشروط بسنده الى ابن عمر رضي الله عنهما ان عمر بن الخطاب اصاب ارضا بخيبر (٤) فأتى النبيء صلى الله عليه وسلم ليستامره فيها فقال يا رسول الله : اني اصبت ارضا بخيبر لم اصب مالا قط انفس عندي منه بما تأمرني به. قال ان شئت حبست اصلها وتصدقت بها. قال فتصدق بها عمر لا تباع ولا توهب ولا تورث وتصدق بها في الفقراء والقربى وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف لا جناح عمن وليها ان يأكل منها بالمعروف ويطعم غير متأثل . وفي رواية ويطعم صديقا. ورواه ايضا في كتاب الوصايا بعدة اسانيد في بعضها فقال عليه الصلاة والسلام تصدق باصله لا يباع ولا يوهب ولا يورث ولكن تنفق ثمرته

وفي هذا الحديث دليل لابي يوسف على عدم اشتراط الحوز وروى الخصاف بسنده الى سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن عمر انه كان ياكل من صدقته بثمغ وفيه دليل لابي يوسف في الوقف على النفس

وقد كتب عمر رضي الله عنه في خلافته كتاب صدقته كما رواه ابو داود من طريق يحيى بن سعيد ورواه الخصاف بسنده الى جابر بن عبد الله قال لما كتب عمر ابن الخطاب صدقته دعا نفرا من المهاجرين والانصار فاحضرهم ذلك واشهدهم عليه فانتشر خبرها قال جابر فما اعلم احدا كان له مال من المهاجرين والانصار الا حبس مالا من ماله صدقة مؤبدة لا تشترى ابدا

وقد جاءت الآثار تترى في اوقاف الصحابة رضي الله عنهم من ذلك صدقة ابي بكر الصديق رضي الله عنه فانه حبس رباعا كانت بمكة لا يعلم انها ورثت عنه وكان يسكنها من حضر من ولده وولد ولده ونسله. وعثمان بن عفان رضي الله عنه وقف ماله بخيبر على ابنه إبان. وعلي ابن ابي طالب رضي الله عنه تصدق بينبع. وكان علي بن الحسين ياكل من ثمرها. والزبير بن العوام رضي الله عنه حبس داره على بنيه. وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حبست دارا السكنى فلان وكذا حبست من امهات

---

(١) اي وقفها بحذف المفعول (٢) بالفتح النخله (٣) وهو الجزء الثالث (٤) وهي ثمغ

المؤمنين حفصه وأم حبيبه وصفيه رضي الله عنهن . وحبس معاذ بن جبل رضي الله عنه الدار التي تعرف بدار الانصار . وزيد بن ثابت وخالد بن الوليد وسعد بن عبادة وغيرهم من المهاجرين والانصار رضي الله عنهم اجمعين

أما ما روي عن الزهري ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لولا أني ذكرت صدقتي لرسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعت فيها فانه إنما يدل على أن الوقف عنده جائز غير لازم لا على انه غير جائز أصلا لان قوله لولا اني ذكرت صدقتي لرسول الله صلى الله عليه وسلم صريح في أن المانع من الرجوع هو محبة الاستمرار على ما ذكره للنبيء صلى الله عليه وسلم ولو كان غير جائز لم يمتنع من الرجوع

وبالجملة فان اصل الوقف ثابت بالسنة قولا وفعلا وعليه عمل جم غفير من الصحابة وناهيك بالخلفاء الراشدين رضي الله عنهم على عهد النبيء صلى الله عليه وسلم وبعده . ومن ثم لم يختلف أيمة الدين وعلماء الشريعة ولم يرد عن واحد منهم في رواية صحيحة وعبارة صريحة أنه ليس بجائز وانما اختلفوا فيما وراء الجواز على حسب ما ترجح عند كل مجتهد من المعاني المستفادة من الاحاديث والآثار

فقال ابو حنيفه الوقف جائز غير لازم ولا يزول به ملك الواقف فيباع ويوهب ويورث واستدل على ذلك بأمور أحدها حديث لا حبس عن فرائض الله بناء على أنه لبيان أن الحبس لا يمنع الفرائض لانه غير لازم ولا يزول به ملك الواقف فيورث بعد موت الواقف على حسب الفريضة الشرعية . ثانيها قول القاضي شريح وهو من كبار التابعين جاء محمد (صلى الله عليه وسلم) ببيع الحبيس . الدال صريحا على عدم اللزوم بناء على أن مقصود شريح الاشارة الى ان شريعة من قبلنا جاءت بلزوم الحبس وشريعتنا جاءت بعدم اللزوم كما يشعر بذلك التعبير بالمجيء . ثالثها أن أوقاف الصحابة لا دلالة فيها على اللزوم لانها انما لم تورث ولم ينقل بيعها لان ما كان منها في زمان النبيء عليه السلام احتمل أنه وقع قبل نزول ءاية الفرائض وما كان بعده احتمل ان ورثتهم أمضوها بالاجازة

ومما يستدل به للامام أيضا ما رواه الزهري من ارادة سيدنا عمر رضي الله عنه الرجوع في صدقته لولا أنه ذكرها للنبيء صلى الله عليه وسلم كما قدمناه ءانفا

نعم استثنى أبو حنيفة من عدم اللزوم صورتين صورة صدور الحكم باللزوم ممن يرى ذلك لان الحكم رافع للخلاف . وصورة ما إذا أخرجه مخرج الوصية كأن يقول إذا فقدت وقفت داري على كذا مثلا لانه في الحقيقة وصية فينفذ نفوذها بالموت هذه خلاصة مذهب أبي حنيفة ومجموع أدلته

وقال جمهور الايمة ومنهم ابو يوسف ومحمد الوقف بنوعيه جائز ولازم يزول به ملك الواقف بمجرد الصيغة عند أبي يوسف وبتسليمه للمتولي عند محمد فلا يباع ولا يوهب ولا يورث

واستدل الامامان أبو يوسف ومحمد بامور احدها قول النبيء صلى الله عليه وسلم لعمر كما في بعض طرق البخاري تصدق بأصله لا يباع ولا يوهب ولا يورث كما تقدم. ثانيها اشتراط الصحابة في أوقافهم عدم البيع والارث كما سلف نقله ولم ينقل رجوعهم عنها ولا ارثها وذلك دليل اللزوم. واحتمال التقدم أو إجازة الورثة الذي تمسك به أبو حنيفة لا دليل عليه . ثالثها ان حديث لا حبس عن فرائض الله لا ينافي لزوم الوقف لانه لبيان مخالفة ما كانت عليه الجاهلية من السائبة والوصيلة ونحوهما لا لبيان أن الوقف لا يمنع الفرائض وأنه يورث ولو كان كذلك لكانت الصدقة بل الهبة بل الوصية مثله فان الجميع حبس عن الفرائض عائقة عن الميراث . وكذلك قول شريح بيان لمخالفة الجاهلية لا لعدم اللزوم على أن الحديث رواه الشعبي موقوفا عن علي رضي الله عنه. ورواه الدارقطني بسند فيه عبد الله ابن لهيعة عن اخيه وهما ضعيفان وأيضا فان ءاية الفرائض كما قال الحافظ ابن حجر متقدمة على أمر النبيء صلى الله عليه وسلم لعمر بالوقف لان الامر كان بعد خيبر سنة سبع

وها هنا نقف بالباحث عن مثارات الخلاف بين المجتهدين ليتأمل ساعة في منزع كل من الفريقين في حديث لا حبس عن فرائض الله وفي قول شريح جاء محمد ببيع الحبيس وكل منهما بجوهره واحد فترجح عند أبي حنيفة احتمال الدلالة على نفي اللزوم وصحة الحديث وترجح عند الامامين احتمال الدلالة على مخالفة ما كانت عليه الجاهلية من السائبة والوصيلة ونفي ذلك في الاسلام وضعف الحديث وهذه نقطة من يم واسع الاطراف في مدارك الخلاف . والمرجح هو قول الجمهور لان الاحاديث والآثار متظافرة عليه قولا وفعلا من صاحب الشريعة صلوات الله عليه وعملا من أصحابه رضوان الله عليهم وبه العمل في سائر الامصار وإنما اختلف المجتهدون في بعض شروط الوقف شرعا ومدلولات نصوص الواقفين بحسب ما ترجح عند كل واحد من المعاني المستفادة من الاحاديث ومن النصوص مما يسعه اللفظ وطريق الاجتهاد. والسلام.

(سـؤال)

الى فضيلة الامام شيخ الاسلام المالكي ينشر على صفحات مجلتنا الفيحاء ادام الله النفع بها ليجيبنا عنه فضيلته :

يروي بعض الرواة ان اول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها (آدم) عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة ، كتبها في طين وطبخه ، فلما اصاب الارض الغرق وجد كل قوم كتابا فكتبوه فاصاب (اسماعيل) عليه السلام الكتاب العربي

وروي ان (ابن عباس) رضي الله عنه يقول : اول من وضع الكتاب العربي (اسماعيل) عليه السلام ، وضعه على لفظه ومنطقه

ويذكر بعض المؤرخين ان اهل اليمن كان لسانهم حميريا واليه تنسب لغتهم فيقال لغة حمير وقد كثر اللجاج في هذه العصور المتأخرة بعد الاكتشافات الاثرية فمن الناس من يقول ان اللسان الحميري هو من اللهجات العربية ، ومنهم من يقول انه اخو العربية تفرع من السامية اصالة. والرجاء اماطة اللثام عن صبح الحقيقة ليعلم الناس الغث من السمين ، وانتم المرجع الذي يلتجا اليه ، وبيان يشفي ما في الصدور ، ويزيل الالتباس (.....)

التعاضد المتين

بين العقل والعلم والدين

بقلم العلامة الحجة الشيخ سيدي محمد
الحجوي وزير المعارف بالسلطنة المغربية

ما اختلفت فيه طوائف الاسلام كيف يعتقد

غير خفي ان أكثر الخلاف بين الطوائف الاسلامية منشؤه أن زعيما يرى رأيا فلسفيا ينتحل له دليلا شرعيا متمسكا بما فيه من عموم أو إطلاق أو إجمال يعتقده اتباعه فيصير لهم يقينا يقاتلون عليه وعقيدة يحملون رايتها ويصير لدى متأخريهم كانه ديانة بشريعة ورسول غير انهم يتجنبون ادعاء الاستقلال واسم ديانة واسم الرسول تقية من سيف الاسلام وهكذا يرى ضد ذلك مخالفوه كما وقع بين المعتزلة والجبرية وبين الرافضة والخوارج في مسائل خلق الافعال وصفات المعاني وغير ذلك

وما كان سبيله هذا فنحن في حل من وجوب اعتقاده والعقائد لا تكون تقليدا للزعماء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا والذي يجب على المسلمين اعتقاده هو ما صرح به الكتاب أو السنة القطعيان أو وقع عليه اجماع صريح كما اننا لا نكفر من اعتقد منهم شيئا من ذلك اذ هم من الكفر فروا ولنا ملء الحرية في النظر والبحث عن الدليل الصحيح . لذلك اقول انني لا اجرأ ان اصف الله الا بوصف وصف به نفسه في كتاب او سنة متواترة مع الصراحة فيها او اجمع عليه المسلمون اجماعا صريحا قوليا لا ادعائيا . كما انني لا انفي عن الله من الصفات على سبيل التعيين الا ما كان ذلك سبيله وكل ما لم يثبت او ينف بهذه الطريق فنكل أمره الى الله سبحانه مفوضين . فاوصاف الله (١)

---

(١) كذلك صفات النبيء توقيفية ما سمع منها بطريق يقيني يقال وما لا فلا لان صفات الرسل من جملة المعتقدات وسبيل المعتقدات هو اليقين حكى الاجماع على ذلك الغزالي ونقله ابن القيم والزرقاني في شرح الموطا فليس لكل من ظهر له وصف ظنه كمالا للنبي وصفه به وان لم يرد معتمدا قول البوصيري

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ❁ واحكم بما شئت فيه مدحا واحتكم

فليست البردة كتابا منزلا وانما جرت على قاعدة الشعراء في المدح فليس لنا ان نتخذها برهانا قطعيا بل علينا البحث عن دليلها . فمن يصف النبي صلى الله غليه وسلم بان العوالم في طي قبضته وان الله فوض له التصرف في مملكته - وهو قول طائفة ضالة تسمى المفوضية كما في كتاب مقالات الاسلاميين للاشعري - فذلك في عهدته ومطالب بدليل قطعي كمن نسب اليه العلم الاحاطي كعلم الله تعلى مع ان القرآن ناطق بخلافه والسنة طافحة بضده فالواجب على اهل العلم ان يعلموا ان صفات النبيئين من جملة المعتقدات التي لا تثبت الا بدليل سمعي يقيني وما سوى ذلك منبوذ . وقد اشبعت القول في ذلك في كتابي (برهان الحق في الفرق بين الخالق والخلق) واشبعت القول في المسالة الاخيرة في تاليف في الرد على التجموعتي الذي نسب للنبي صلى الله عليه وسلم علما احاطيا كعلم الله

تعلى توقيفية على القرءان او السنة المتواترة لا يستقل العقل بها ثم ان كل ما كان بهذه الطريق اثباتا او نفيا لا تجده قط متعارضا مع ما دلت عليه العقول دلالة قطع ويقين بحال .

فلسنا نستطلع الغيب ولا نصف الله بما توهمه الفلاسفة وصفا له زاعمين قيام ادلة عقلية على ذلك اثباتا ولا نفيا . نعم اثبات وجوده تعلى والوهيته ووحدانيته وحكمته دلت الشواهد العقلية والحسية التي هي مصنوعاته على ذلك دلالة مشاهدة وايدها القرآن والسنة والاجماع .

فليس الحق سبحانه شرعة لكل وارد : يكيفه الخاطر والوارد ولا مما تصل اليه أوهامهم أو تكيفه عقولهم . فالفلسفي الذي يصور إلاها بعقله كالوثني الذي يصور وثنا بيده ، وانما تفقه الفلاسفة قياس للغائب على الشاهد الحادث . ورجم بالغيب . لكن المقام اعلى . والجناب أسمى . والحق أبلج . ولسان القاصر لجلج . فقد وصف نفسه في كتابه بالجبار المتكبر . وقال يضل من يشاء . وقال يخادعون الله وهو خادعهم . وذلك في المخلوقين ليس بكمال . قال تعلى كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار . فنحن برآء اليه ان نصفه على سبيل التعيين الا بما وصف به نفسه . نعم نصفه بوصف عام وهو كل كمال يليق بجلال الآله الحق . وننزهه عن كل نقص . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

فمن اثبت له الالتذاذ او الذوق او الشم قياسا على الخلق لكونه كمالا فيهم . او نفى عنه صفات المعاني كالعلم والكلام والسمع والبصر زاعما قيام الدليل القاطع العقلي على الاثبات والنفي فليس بشيء وادلتهم واهية وفكرتهم واهمة وهي تقليد للفلاسفة فقط وفي نظري ان فلسفة الآلهيات عند اليونان او غيرهم انما هي احتمالات أوجبها جهلهم بالنبوات فاصبحوا يستوحون عقولهم التي ليست لها طائرات تحلق حول ما ليس من عالمهم فضلوا وضل تبعا لهم معتزلة الاسلام ومن نحى نحوهم . والله يقول : أنزله بعلمه . كما نبرأ من تمحل بعض المحدثين وجمودهم حيث قالوا : انه متكلم اذا شاء بكلام ذي حروف واصوات . ومقام ذي العزة والجبروت اجل واكمل عن ان تصل اليه العقول المقفصة في عالم ضيق . عقول محتاجة الى كثير من النضوج لا يتم الا في ملايين من السنين

أنى للسمك في قعر البحر والجنين في بطن الام والنطفة في الصلب ان تحقق العلوم الفلكية وتدقق المسائل الطبيعية فضلا عن الاستبداد بمعرفة الصفات الآلهية والتهجم على استنباطها قياسا على المخلوقين ❁

عجبا كيف غفل الفلاسفة عن عجزهم عن الوصول لحقائق الكون البسيطة وهم منه وهو مخلوق مثلهم حتى اختلفوا في علم الهيأة وتبين جهلهم في كثير من الفروض والتقديرات التي قدروها . وهو علم تدرك اصوله بالبصر وبالحساب المدقق . عجزوا عن الاتفاق فيه واختلفوا فيه اختلافا منتشرا واصبح متأخرهم يضحك من متقدمهم بل تبين في بعض مسائله اصابة المتقدم وخطأ المتأخرين

وان تعجب فعجب من كون كل طائفة تدعي ان مذهبها يقين قامت عليه البراهين ثم يتبين

الخطا الصراح . هذا في علم هو اوثق معلومات الفلاسفة . فيالله ويالرجال من ضعف عقول لم تحسن تصور ما تراه ويعينها البصر والآلات على تصوره . فكيف يمكننا ان نقلدهم في دعواهم الوصول الى كنه من يزعمون هم انفسم انه لا تمكن رؤيته .

كلا ان الانسان مجبول على الانانية وعلى الدعوى العريضة انه ذو حول وطول ومعرفة كاملة توصله الى فهم كل شيء وهو في بحر الجهالة تائه . لقد ضيعوا وقتا نفيسا طويلا في علم الالهيات فجلبوا مقتهم بأنانيتهم واوقعوا العالم معهم في ارتباك وجدال .

كل الطوائف الاسلامية من معتزلة ورافضة وغيرهم ياتي زعيمها بفكرة عقلية يتلقفها عن الفلاسفة او عن عقله وينتحل لها دليلا شرعيا كما سبق فياتي اتباعه فينمونها بخلابة البيان خطابيات وشعريات يصيرونها براهين . ويدعون ان مذهبهم الحق الواضح . والنور الفاضح . والقطعي الذي ليس بعده يقين يناهضه . وكل طائفة تدغي صراحة النصوص لجانبها والاجماع الصريح والتواتر الذي لا امتراء فيه . ثم اذا نقد الناقد البصير الغير المتحيز وعرضها على محك النظر وجدها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء وليس هو شيئا .

لقد احتدم الجدال في خلق الافعال وتماثل الاجسام وبقاء الاعراض وانتقالها وهل هناك خلاء ؟ وفي وجود الجوهر الفرد . وكون الموجود منحصرا في الجسم والعرض او هناك ما يسمى بالمجردات الى غير ذلك ولم يحصلوا على طائل . ولو انهم اتخذوا هذه المسائل وسائل لما وضعت له من كشف حقائق الكون لخدموا العلم خدمة جلى . ولكنهم اغفلوا ذلك وراموا التوصل بها الى المكون فابعدوا النجعة ووقعوا في متائه ومجاهل حارت فيها افكار المتقدمين وجرف سيلهم المتاخرين .

ضيعوا اوقاتا نفيسة في جدالات عقدوا لها مجالس ومؤتمرات لو صرفوها في تحسين حال العلم والمجتمع لكان انفع . وذلك بترقية المدارك والاكتشاف والاختراع في العلوم الطبية والكيماوية والميكانيك والفلاحة والصناعة وكل نافع نفعا حقيقيا بل وفي العلوم الادارية لادارة الممالك الاسلامية الواسعة والمنتشرة من المشرق الى المغرب والتي اختلت باختلال ادارتها واضاعة روابطها التي كانت أمتن رابطة بالعدل والعلم والتهذيب والشورى ضد الاستبداد والتي يدفع بها عادية الظلم والاختلال الذي انهك دول الاسلام وجعلها في ءاخر صف بعد ما كانت في أوله بسبب اضاعتهم لوصايا القرءان الذي يحضهم على النظر في احوال الملكوت والممالك الارضية ولكنها السياسة كانت ورآءهم تحركهم وتحرضهم وتجعل اتجاههم نحو الافكار العقيمة تشغلهم بها وبشخصياتهم عن المصالح العامة قبل ان يشتغلوا بها فيغلوا ايديها الباطشة الغاشمة الاثيمة . ولعل هذا سبب قلة الاختراع والاكتشاف في الاسلام . ثم نزيد تاكيدا لما قررناه قبل . وان كل ما اختلفت فيه الطوائف الاسلامية واصبح بعضهم يكفر بعضا ويدعي ان مذهبه هو البرهان العقلي اليقيني وغيره لا يسلم بذلك فنحن في حل من وجوب اعتقاده ولنا ملء الحرية في البحث عن الدليل من الكتاب والسنة اذ ليس علينا الا اعتقاد ما وصف الله به نفسه في قرءان او سنة متواترة على ظاهره مع كمال التنزيه .

(البقية بصحيفة ٣٥)

التاريخ

القضاء الشرعي

بقلم العالم المؤرخ أمير الامراء سيدي
محمد بن الخوجه مستشار الحكومة

اعلم أن راس الخطط الشرعية في الاسلام هي القضاء وأول من باشره معاذ بن جبل الذي كان بلسان النبوة أعلم الناس بالحلال والحرام فقد ثبت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه قاضيا الى الجند باليمن يعلم الناس القرآن ويقضي بينهم بالحق وكان ذلك عام فتح مكة المكرمة سنة ثمان للهجرة وجاء في كتاب التخريج والاستيعاب لابن عبد البر أن الخليفة الاول سيدنا ابا بكر الصديق عهد بالقضاء سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وقال له : اقض بين الناس فاني في شغل. يعني في شغل بالنظر في مصالح المسلمين. والرواية التي اجمع عليها المؤرخون هو ان اول قاض في الاسلام اولاه الخليفة الثاني سيدنا الفاروق. قال ابن خلدون في المقدمة : وكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه « اي القضاء » بانفسهم ولا يجعلون القضاء الى من سواهم وأول من دفعه الى غيره وفوضه فيه عمر رضي الله عنه فولى ابا الدرداء معه بالمدينة وولى شريحا بالبصرة وولى ابا موسى الاشعري بالكوفة وكتب له في ذلك كتابه المشهور (١) الذي يدور عليه أحكام القضاة وهي مستوفاة فيه يقول : اما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا ادلي اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من انكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضية أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ،ثم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظائرها ،واجعل لمن ادعى حقا غائبا او بينة امدا ينتهي

(١) اتفق لي ترجمة هذا الكتاب للسان الفرنساوي في مدة الوزير المقيم الاسبق مسيو ريني ملي فلما اطلع عليه هذا الوزير وكان من المجاهرين بحب الاسلام واهله اعجب به ايما اعجاب وضمه لمجموعة النصوص الفقهية والوثائق التاريخية والتراتيب الادارية التي نشرها في كتاب جامع اشتمل على سائر النظم التونسية في عصر الحماية الفرانساوية

اليه فان أحضر بينته أخذت له بحقه والا استحللت القضية عليه فان ذلك انفى للشك واجلى للعماء ، المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا في حد او مجربا عليه شهادة زور او ظنينا في نسب او ولآء فان الله سبحانه عفا عن الايمان ودرأ بالبينات ، وإياك والقلق والضجر والتافف بالخصوم فان استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذكر والسلام اه

ومما تقدم يتضح ان ثاني الخلفاء الراشدين ولى معه قاضيا بالمدينة للنظر في احوال المسلمين كما وجه بقاضيين لاطراف المملكة الاسلامية اسوة بالنبي صلى الله عليه وسلم. ويستفاد مما ذكرنا قاعدة شرعية أصلية وهو جواز انتصاب قاض للحكم بين الناس في نفس البلد الذي فيه الامير وقد جوزوا ذلك لا ترفعا منهم عن مباشرة عامة الناس بل لاشتغالهم بامور السياسة العامة وما يلتحق بها من جهاد وفتوحات وسد الثغور وحماية البيضه على ان انابة الخليفة للقاضي كانت في بداية امرها قاصرة على النظر في بعض الاحوال دون سواها حتى إنه وجد في الدولة العباسية قضاة يحكمون فيما دون المائتي درهم بما يشابه خطة قاضي الصلح الفرنساوي وحاكم الناحية التونسي لهذا الزمان من بعض الوجوه وانما وقع التوسع في خطة القاضي بعد ذلك على التدريج بحسب اشتغال الامراء والملوك بالمهام الكبرى الى أن استقر القضاء اخر الامر على الجمع بين السلطة الشرعية القضائية من فصل وحكم ونظر في اموال المحجور عليهم من مجانين ومفلسين ويتامى وسفهاء وفي وصايا المسلمين واوقافهم وتزويج الايامى عند فقدان الاولياء والنظر في مصالح الطرقات العامة والابنية وتصفح الشهود والامناء والنواب وبين النظر في المظالم التي هي وظيفة مستمدة من سلطة الامير. على ان خطة القضاء لحقت شأوا اسمى وابعد من ذلك على عهد الدولة الاموية بالاندلس والدولة العبيدية بافريقية فقد أوكلوا لامانة قضاتهم النظر في شؤون الحسبة العامة وهي وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بامور المسلمين فيتخذ اعوانا على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل منع المضايقة في الطرقات ومنع الجمالين واهل السفن من الاجحاف في الحمل والحكم على المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على يد المعلمين في المكاتب ومعامل الصنائع في ضرب الصبيان فوق التربية المشروعة التي يحصل بها تأديبهم وحماية الحيوانات الاهلية وزجر ارباب الدواب عن تحميلها فوق طاقتها أو ضربها فوق اللازم وبيعها عليهم قسرا اذا لم يتقوا الحيوانية فيها فجمعوا بذلك للقاضي القسم الثاني من مقصد الشريعة الذي هو حفظ الاداب زيادة على القسم الاول الذي هو حماية الحقوق

وكان العصر الحفصي بتونس أكثر العصور احتراما واعتبارا للسلطة الشرعية حتى إنهم أضافوا لخطة القاضي مهمة النظر في شئون السكة واستخلاص عيار الذهب والفضة فكان لقضاتهم طوابع يضعونها على المصوغات علامة على سلامة ذوقها من الغش وتقرير الغاية التي وقف عندها السبك مثلما

يفعل اليوم اهل البــلاد المتمدنة ـ وهذا زيادة على ما كان للقاضي من حق النظر على الشهود وتتبع سيرتهم وتوقيفهم عنــد حد خطة العدالة وتعزيرهم بالتوقيف عن المباشرة موقتا او نهائيا وطلب معاقبتهم من السلطان عند ارتكابهم للتدليس والزور ـ وقد قال سيدنا عمر ان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرءان ـ ولم يستثن على القضاة في كل الدول الاسلامية الا مسائل القصاص والقود وما اشبه فيحكمون فيها ويتوقف تنفيذ حكمهم على الامير وتلك سنة عمرية تحفظا على الدماء .

وكانت علاقة القاضي بالدولة شديدة كعلاقة الوزير حتى إن الملوك كانوا يتخيرون قضاتهم اثر قبولهم للبيعة ليكون القاضي علقا بالامير ومن اهل سياسته . وقد اولى المامون القاضي احمد بن داود الذي كان على رأيه في مسالة القول بخلق القرءان . وفي بعض الاحايين كان الملوك يجمعون لقضاتهم بين خطة الوزارة وبين خطة القضاء بل وبينه وبين قيادة الجيش فقد كان اسد بن الفرات من أيمة المذهب الحنفي قائدا للجيش الفاتح لصقلية حيث جاهد ومات سنة ٢١٣ وكان ابن عاصم من فقهاء المذهب المالكي قاضيا ووزيرا بغرناطة . على ان الملوك كانوا في الكثير يجدون في انفسهم على القضاة فيسرون لهم العــداوة ويتربصون بهم الدائرة للايقــاع بهم وربما استعانوا عليهم بالقوة والمال لاسقاط منزلتهم واعتبارهم في عيون الامة فيشيعون عليهم اخذ الرشوة ليهيج غضب العامة عليهم فيتخذونها فرصة للانتقام منهم وهكذا فعل اسد الدولة ابن مرداس سنة ٤١٥ ولنا في حديث شيخ الاسلام احمد بن تيميه وامتهانه على يد الوزير الجديد وفيما ارتكبه السلطان الحفصي محمد المستنصر بن ابي زكريا مع العالم المحدث ابي عبد الله محمد بن الابار القضاعي حيث سجنه وعذبه ثم امر بقتله قطعا قطعا وحرق جثمانه مع تآليفه وكتبه ما يغني عن ذكر امثلة اخرى في مقام انتقام الامراء من العلماء .

اما القضاة بافريقية اي بالديار التونسية فقد قال في معالم الايمــان ان اول قاض بافريقيــة هو ابو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي من فضلاء التابعين ولاه موسى بن نصير قضاء القيروان سنة ٨٠ للهجرة وهو احد العشرة من التابعــين الذين اوفدهم الخليفة عمر بن عبد العزيز لتفقيه اهل الآفاق بافريقيــة ومنه تسلسل القضاء بالقيروان الى ان تولاه الامام سحنون صاحب المدونة وسحنون هو الــذي احدث مقصورة خاصة بجلوس القاضي حال انتصابه للحكم وهو اول من اتخذ اعوانا وجعل جرايتهم من بيت مال المسلمين وكان يستدعي المطلوب ببطاقة ولا يرسل له عونا واتخذ كتابا في مجلس الحكم وضبط اساليب المرافعة بما عليه عمل قضاة تونس في هــذا الزمان ومن سحنون انتقل القضاء لايمــة ءاخرين من فقهــاء القيروان فالمهدية فتونس فكان قاضي الجماعة مقره حاضرة تونس في اوائل المائة السابعة لاستقرار الدولة الحفصية بها وكان القضاة بتونس قبل ذلك يرجع امرهم لقاضي القضاة بالقيروان اولا ثم بالمهدية بعدها . ولما بويع بالخلافة للسلطان محمد المستنصر بالله الحفصي في سنة ٦٥٧ اعتنى بخطة القضاء اعتناء لم يعرف قبله فجعل اربعــة من القضاة بتونس : قاضي الاهلة

وقاضي الانكحة وقاضي المعاملات وقاضي الجماعة وهو المسمى بقاضي القضاة وزاد بعد ذلك قاض اخر يلقب بقاضي الفريضة وهذه الخطط الشرعية التي عفت رسوم معظمها كان انقراضها في ازمان مختلفة فقاضي الاهلة كان موجودا في زمن الباي حمودة باشا الحسيني وقاضيا الانكحة والمعاملات اندمجا ضمن خطة قاضي الجماعة وقاضي الفريضة الغيت خطته في اوائل هذا القرن واخر من تولاها الشيخ الطاهر القصار المتوفى سنة ١٣١٤

واول من تلقب بقاضي القضاة في الاسلام هو الامام ابو يوسف صاحب الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان قاله ابن الاثير في كتاب الانساب .

ويستفاد من التواريخ التونسية ان الدولة الحفصية كما اسلفنا كان لها قدم سبق في الاهتمام بالقضاء والى سلاطينها ترجع مزية تعزيز خطة القاضي بالمفتي للمسترشدين فنصبوا من اهل العلم بالمسجد الجامع من يفتي الناس ويفقههم في الدين فكان الامام محمد بن عرفه الورغي مفتيا بجامع الزيتونة في(١) المائة الثامنة وكانت الفتوى في الصدر الاول يقوم بها كل من انس من نفسه علما وتقوى وغلق هذا الباب سدا للذريعة في المائة الرابعة وصار الانتصاب للفتوى بين الناس يتوقف على تفويض من الامير وكان جلوس المفتي للافتاء بالمسجد الجامع كما اسلفنا ولم تنفصل الفتيا عن الجامع الا في اواخر المائة الثامنة فكان حال العلم في المائة التاسعة في ادبار والدولة في تراجع وشباب الحفصيين أفل نجمه والهرم استحكم فيهم بتاصل الفتنة في ربوعهم وتوالي فتوحات العدو من الاسبانيول فيهم وما اشرف القرن التاسع على اعقابه حتى كاد ان ينقطع العلم من تونس لولا ان تداركها الله بالفتح الاسلامي على يد الوزير سنان باشا في سنة ٩٨١ وكان المذهب المالكي يومئذ هو المذهب السائد بافريقية من عهد المعز ابن باديس الذي حمل الناس على التمذهب به وترك ما سواه من المذاهب اتقاء شر البدعة بظهور مذهب الشيعة في المائة الخامسة وكان المذهب الحنفي قبل ذلك هو اظهر المذاهب بافريقية فيما حكاه القاضي ابن خلكان وغيره من المؤرخين . فلما انتصبت الدولة العثمانية بتونس في اواخر المائة العاشرة اقام الترك بمنصب الاحكام الشرعية قاضيا حنفيا ياتون به من بلادهم ثم يبدلونه بعد ثلاث سنين بقاض جديد من الاتراك - وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يبدل قضاته بعد اجل معلوم كعامين او نحو ذلك - وقال في بعض التواريخ التونسية ان متولي القضاء في مدة السلطان الحفصي ابي عمرو عثمان بن محمد ابن ابي فارس عبد العزيز كان لا يبقى في خطة القضاء بجهة اكثر من ثلاث سنين ثم ينتقل بجهة اخرى الى ان يتصدى لقضاء الحاضرة ثم يتصدر للفتوى والشورى بين الناس . وعبارة الشورى في استعمالهم اذاك تدلنا على وجه تسمية المفتي الاول المالكي بكبير اهل الشورى الى عهود متاخرة . الى هنا انتهى بنا الكلام في هذا الدور الاول من تاريخ القضاء الشرعي بتونس وسنتحدث في الاعداد القابلة ان شاء الله على التطورات التي تناولته بعد ازدواج السلطة الشرعية ابتداء من تاريخ قيام المذهب الحنفي الى هذا الزمان وكل ات قريب .

محمد بن الخوجه

---

(١) يسر الله لي في هذه الايام اتمام تاليف اسميته تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد تضمن شتى الاخبار في موضوع الكلام على اهل الفتوى بجوامع تونس على عهد الدولة الحفصية وهو الآن تحت الطبع وسيظهر قريبا ان شاء الله

صفحة من تاريخ تونس — صلة تونس بالدولة العلية

بعثة خير الدين للاستانة

في سنتي ١٢٨١ - ١٢٨٨ (*)

للعالم (الدكتور) في الحقوق امير
الامراء سيدي محمد صالح مزالي عامل بنزرت

في الثاني عشر من ماي سنة ١٨٨١ الموافق للثالث عشر من جمادى الثانيـة سنة ١٢٩٨ تمت معاهدة القصر السعيد بامضاء المولى المشير الثالث محمد الصادق باي والجنرال بريار مفوض الجمهورية الفرنساوية وبمقتضاها انتصبت حماية فرنسا على المملكة التونسية — فمما اشتملت عليه من الشروط ما جاء في الفصل السادس منها ان نواب فرانسا في الاقطار الاجنبية من سفراء وقناصل مكلفون بحماية المصالح التونسية والاشخاص التابعين للايالة — بحيث إن ممثلي الدولة الحامية المستقرين في مختلف الامصار يصح اعتبارهم في آن واحد بصفة نواب دائمين لدولة سمو الباي دام له العز والبقاء

اما قبل الحماية فلم يعتمد ملوك تونس ايفاد من يمثلهم بصفة مستمرة لدى الدول الاجنبية بل كانوا يقتصرون على تشكيل بعثات إستثنائية كلما دعت الحاجة لذلك منتخبين أفرادها من رجال البلاط تارة وأخرى من علماء الدين مثل الشيخ المحقق سيدي ابراهيم الرياحي الذي أوفده حمودة باشا للمغرب الاقصى ثم المولى احمد باي الى الاستانة

وممن زان البعثات التونسية في القرن الاخير الوزير خير الدين الناصح الامين — توجه اولا للديار الباريزية سنة ١٢٠٧ للدفاع عن مصالح تونس لدى اللجنة المكلفة من طرف الحكم نابليون الثالث بالنظر في الخلافات الواقعة بين الايالة ومحمود بن عياد — فأظهر من الحزم والاجتهاد ما قمع به المساعي الاثيمة التي كانت ترمي إلى استلاب الاموال التونسية وبالرغم عن تمسك محمود بن عياد بالجنسية الفرنساوية ومحاولته على تجنيس الوزير مصطفى خزندار نفسه تمكن نائب سمو الباي من استصدار حكم بخفض خمسة وخمسين مليونا « ريالات » يدعي ابن عياد انه سبقه على حساب الدولة التونسية وجبره أيضا على أداء أربعة وثلاثين مليونا للصندوق التونسي

(*) هذا الموضوع طالما تشوفت له النفوس متطلعة عما ادته سفارة الوزير خير الدين لدى الباب العالي والمهمات التي قام بها بين حكومة الباي والباب العالي سيما وقد ضعفت الصلة التي تربط تونس بالدولة العلية على عهد المشير احمد باشا الاول وهل كانت سفارات خير الدين القصد منها اعتراف الحضرة العلية بالسيادة العثمانية على الديار التونسية ؟ ذلك ما ستحدثنا عنه هذه الوثائق التاريخية الثمينة

ثم تكرر توجيه هذا الوزير الخطير من طرف الحكومة التونسية في مناسبات مختلفة لدى ممالك - المانيا وفرنسا وانقلتيرا وايطاليا والنمسا والسويد وهلاند او الدنمرك وبلجيكا ولا شك ان ما شاهده في سفراته العديدة وما اكتسبه اثناءها من التحنك والخبرة هو الذي أهله لتأليف كتابه المشهور « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك »

ومن أهم ما أنيط بعهدة خير الدين من المأموريات السياسية التفاهم مع رجال الدولة العلية العثمانية في شأن ضبط العلائق بينها وبين الدولة التونسية وتقرير ما حصل عليه آل البيت الحسيني المعمور من الاستقلال النسبي مع اثبات ما لهم على العرش التونسي من حق الوراثة خلد الله ملكهم مدا العصور وأسعد البلاد بعزهم - فتوجه الوزير خير الدين للاستانة مرتين في هذا الغرض الاولى سنة ١٢٨١ والثانية سنة ١٢٨٨ ولما رجع ظافرا غانما اقتبله المولى الصادق باي بكل حفاوة وأجزل عطاءه ومما تفضل به عليه جراية عمرية قدرها خمسون الف ريال وهنشير « النفيضة » المشهور زيادة عما قلده من الاوسمة المرصعة . واليكم بعض الوثائق المتعلقة بهاتين البعثتين :

« ١ »

تعيين خير الدين للبعثة الاولى

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم

(الطابع السعيد)

من عبد الله سبحانه المتوكل عليه المفوض جميع الامور اليه المشير محمد الصادق باشا باي سدد الله تعلى أعماله وبلغه ءاماله الى الهمام المفخم امير الامراء الوزير ابننا خير الدين ادام الله تعلى حفظه وأجزل من السعادة حظه اما بعد فاننا بمقتضى ما نتحققه من صدقك وامانتك وكفاءتك وجهناك للابواب العلية السلطانية العثمانية اعز الله تعلى نصرها وادام فخرها للكلام فيما يؤكد اصول عاداتنا المالوفة المعروفة الآن وما تنفصل به مع الدولة العلية في ذلك بالكتابة فهو ماض في حقنا فوضنا لك في ذلك التفويض التام بحيث لم نستثن عليك في ذلك فصلا من فصول التفويض ولا معنى من معانيه واقمناك فيما ذكر مقام انفسنا تفويضا تاما عرفنا قدره والتزمنا به والله اسأل لكم التوفيق والامداد وبلوغ الامل والاسعاد وكتب اواسط ١٦ جمادى الثانية من سنة ١٢٨١ احدى وثمانين ومائتين والف

(وباسفله بخطه الشريف) صح من المشير محمد الصادق باشا باي

« ٢ »

التعريف بالوزير لدى الباب العالي

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم

الوزارة العظمى الصائبة المرمى والرتبة الشامخة الشما وزارة الركن المنيع الاحمى فؤاد الدولة

وقطب مدارها والمجلي بميادين فخارها والحافظ لصولتها وءاثارها في سائر اوطارها ونازح اقطارها الصدر الاعظم المشير السيد محمد فؤاد باشا جمع الله تعلى بآرائه شمل اهل التوحيد حتى يستوي في حمى الخلافة منهم القريب والبعيد. اما بعد السلام المؤدي لحق المقام فقد كنا انهينا لجنابكم الرفيع ورود كتابكم العظيم الوفادة الكثير الافادة الموضح لطرق الخير واسباب السعادة ومعه من المواهب السلطانية والفواضل الخاقانية ما قابلناه بما استطعنا من واجب الشكر كامثالها التي لا ينسى لها ذكر واجتمعنا مرارا بنخبة اقرانه لنباهة شأنه الدال على حسن اختياركم وسديد انظاركم المؤتمن على اسراركم السيد حيدر افندي وبلغ لنا عن وزارتكم السامية ما رعيناه وبعين البصيرة لحظناه ولقد احسن التقرير واوضح التفسير فيما كلفتموه بتبليغه الينا وشرح لنا مقصودكم من المصلحة التي افصح لنا عن رغبتكم فيها. والذي تقرره لوزارتكم التي تلين الصعاب وتدنيها وتغرس اصول السياسة وتجنيها لتنال الملة من ثمراتها اقصى امانيها. ان للعبد الفقير بفضل السلطنة العلية وعوائدها المرعية خدمة يرثها الخلف عن السلف على عادات معتبرة واصول مشهورة مقررة اقتضاها حال وضع هذه الايالة المخصوص التي لا تشابهها غيرها لاسباب يغني ظهورها عن الشرح وجرى عمل السلاطين العظماء على تقريرها وصانوا فضلهم عن تغييرها واشتهر علم ذلك في الجهات جيلا بعد جيل وعلى ذلك التقرير اعتمادنا ونحن بهذه النعمة قانعون حامدون شاكرون وعلى طاعة الخلافة مثابرون وقد اقتضى الحال الذي بلغ علمه للدولة العلية والسلطنية الخاقانية تاكيد هذه العادة المقررة من السلاطين السادة القادة وكرم الخلافة يقتضي الزيادة لا النقصان على كل حال وفي كل ءان تقوية للعصابة الاسلامية وان كانت على كل حال معتصمة بالسلطنة العلية محمية بيدها العالية القوية وحقوقها المعتبرة المرعية ولما كان المكتوب لا يتحمل استقصاء الفروع اوفدنا الى بابكم وعلى جنابكم مقام ابني الهمام المفخم الوزير امير الامراء خير الدين واودعنا لصدقه وامانته ما رجونا تشريفه بالاصغاء اليه فيما يبلغه لجنابكم عنا والله اسأل التوفيق والاسعاد ببلوغ المراد وهو حفظ الملة الاسلامية بكل قطر وبلاد ببقاء سلطان السلاطين واعانة وزيره المنزل من الدولة منزلة الفؤاد والسلام من معظم قدركم الفقير الى ربه تعلى المشير عبده محمد الصادق باشا باي وفقه الله تعلى وكتب اواسط ١٦ جمادى الثانية من سنة ١٢٨١ احدى وثمانين ومائتين والف (وباسفله الطابع السعيد)

« ٣ »

مكتوب موجه من الوزير الاكبر مصطفى خزندار
الى الوزير خير الدين بتاريخ يوم الاحد الثاني عشر من رجب سنة ١٢٨١

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم

الهمام المفخم امير الامراء الوزير السيد خير الدين حرسه الله تعلى السلام عليكم وبعد فانه

بلغنا مع الفابور الانقليزي كتابكم المؤرخ بيوم الجمعة ٢٧ من الشهر المنصرم وكتابكم المؤرخ بموفاه وقبل ذلك بلغنا التلغراف الذي وجهتموه على طريق كاليري وعلمنا ما ذكرتموه كله وشكرنا الله تعلى على عافيتكم وبلوغكم لاسلامبول على خير وعرضنا ذلك على الحضرة العلية وسر مولانا دام عزه وعلاه بما شرحتموه من عافيتكم وعلم ايده الله تعلى اعتناء الدولة بقدومكم وثناء الوزيرين عن السيرة واستغرابهما لما وقع حين سفركم وقبل هذا وجهنا لمالطة مكتوبا اولا مع فابور انقليز لتعذر سفر الباجي بسبب احتياجه للاصلاح ومكتوبا ثانيا لها مع الفابور الباجي وكلاهما يصلانكم على يد الوكيل كما عرفتمونا واعلمناكم فيهما بما عندنا من الاخبار والاحوال من حين سفركم لتاريخهما ونرجو انهما وصلا اليكم الآن الخ (١)

« ٤ »

تعريب مكتوب باللغة التركية من الصدر الاعظم للمولى الصادق باي

مؤرخ « في ١٠ كانون اول » الموافق للثالث والعشرين من رجب سنة ١٢٨١

الحمد لله — المبعوث في هذه الوجهة صحبة سعادة خير الدين باشا من المكتوب المشيري شاكر الآثار والالتفاتات السلطانية في خصوص الوقائع المكدرة الاخيرة التي وقعت في ايالة تونس المحمية (٢) ومؤيدا لعبوديتكم وخصوصيتكم البهية مع مكتوبكم المرسل الى هذا المخلص المثني على ذاتكم العلية قد قدمناهما للعتبة السنية الخاقانية وصارا معلومين عند حضرته الملوكية خلده الله على سرير شوكته وجعله زينة لاريكة عدالته وخلافته التي هي مرجع الانام وملجا الاسلام بحرمة حبيبه الاكرم عليه السلام مدى الدهور والاعوام فانه متخلق بفضل الله بالسجايا التي تستجلب وتستدعي دائما رفاهية حال البرية من تبعة دولته العلية فلذلك يريد ويؤمل سعادة الحال واستراحة البال على الدوام والاستمرار لذاتكم وللمنتسبين الى سلسلتكم العلية وللعباد الذين حسن ادارتهم موضوع بيد حضرتكم السامية وانه ايده الله بعد تأثر وتأسف من ظهور ذلك الاختلال قد صار مسرورا من زواله ولله الحمد على وجه السهولة في المدة الاخيرة كما انسر من تعظيمكم قدر قيمة همته العلية ومساعيه المصروفة السنية في اندفاع هذه الحادثة الفجيعة . ثم ان السلطنة السنية مرادها الحقيقي ومقصودها القطعي على الوجه المحرر عبارة عما يستوجب بقاء الاستراحة في تونس وارتقاء عمرانها وتأسيس بناء الراحة والامن بها يوما

(١) بقية المكتوب وهو طويل الذيل تعرض لمواضيع شتى لا فائدة في نقلها هنا . كما ان المكتوب الموجه لمالطة موجود لدينا مع غيره من صادرات الوزير الاكبر الا ان الاستغناء عن نشره لا يخل بتفهم المسالة المبسوطة هنا

(٢) هذه اشارة الى ثورة ابن غذاهم والى قدوم حيدر أفندي مبعوث السلطان إذ أتى باعانة مالية قدرها مليون فرنك وكان قدومه مع قطعة من الاسطول التركي الذي التقى هنا بعدة اساطيل اروباوية

فيوما لاهاليها وتبعتها ولاجل تمام حصول هذا الغرض الذي هو راجع وعائد اليها لا تنقطع عنها الهمة والاعانة في وقت من الاوقات والدليل الجديد العلني على صدق هذا المدعي رافعا ودافعا لما عسى ان يتوهم تقوية الامتيازات القديمة على وجه التجديد رسما وهي الخطبة والسكة يكون كل منهما باسم السلطان كما كانا في القديم لكونهما علامة علنية لارتباط ايالة تونس التي هي من الاجزاء المتممة للممالك العثمانية ارتباطا شرعيا بمقام الخلافة الاسلامية. والصنجق شكله ولونه المخصوص به الآن باقيا على حاله والمعاملات الارتباطية الجارية مع طرف الدولة العلية الى هذا الوقت تكون مرعية وجارية كما كانت وعلى بقاء هذه الامور ودوامها يكون امر الولاية على طريق الوراثة مخصوصا بسلسلتكم العالية كما كان وتكون انتم مستقلا بالتصرف في الولايات الشرعية والسياسية والعسكرية وفي العزل بمقتضى القوانين الموافقة للعدل وفي الادارة الداخلية لتلك الايالة موافقة للشرع العزيز ومطابقة للقوانين العدلية التي هي كافية لتامين الانفس والاموال والاعراض وموافقة لمقتضيات الوقت والزمان ومرخصا في المعاملات المعلومة مع الدول المتحابة كما كان ولذلك للمتولي ان يبعث ويطلب الفرمان العالي ويعطى له على العادة . هذا ومهما وقع الاستدعاء والطلب من جنابكم السامي لصدور الامر العالي والفرمان الخاقاني فيما ذكر من الامور كلها المقررة اعلاه يصدر لكم حسبما صدر الاذن العالي بذلك وبحسب المامورية تسارعنا لبيان هذا الحال لجنابكم بكل سرور يكون معلومكم ذلك وباطلاعكم على هذا المكتوب الدال على الخصوصية وبما يقرره لجنابكم خير الدين باشا شفاها يتبين لكم ان نية السلطنة العلية منحصرة في الاصلاح والتاييد لايالة تونس ولذاتكم السامية ومقصورة على تخليص الرابطة القديمة والتابعية الممتازة بمقر الخلافة العلية ومنع ما يوجب دخول الخلل والتنافر ويحصل لكم الجزم واليقين بها ولا اشتباه في انكم تستجلبون دائما محاسن انظار حضرة سلطان الاسلام التي توجب سلامة الدارين وتستوجب ذكر الخير لحضرتكم مدى الاعوام فلذلك اكتفينا بتحرير هذا القدر ورفعنا دعاءكم الى محل الاستجابة فليكن ما كتبناه رهين علمكم العالي والامر كله لمن له الامر

ادخال اللغة الايرانية في المعاهد العلمية الدينية بالازهر الشريف

قررت مشيخة الازهر ادخال اللغة الايرانية في برامج التعليم كلغة شرقية تقع دراستها في معاهد التعليم الثانوية في جملة اللغات التي تدرس بجامعات الازهر والقراء على علم ان قانون اصلاح التعليم بالازهر من جملة فصوله فصل يتعلق بدراسة اللغات الحية وآخر يتعلق بدراسة بعض اللغات الشرقية وعلى الاخص ما يتصل منها باللغة العربية وبالفعل تدرس الآن عدة لغات شرقية وغربية وها قد زيد على المقرر منها اللغة الايرانية. وللمصاهرة بين العائلتين المالكتين العلوية والبهلاوية تاثير على القرار الذي اتخذ اخير فان هذه المصاهرة احدثت تاثيرا عظيما في حياة المملكتين الاجتماعية والسياسية وحتى العلمية وبمثل ذلك تستحكم العلاقات ويجتنى النفع العميم

الخيـال

في الادب العربي

- ٢ -

بقلم الاديب الفاضل الشيخ احمد بن المختار الوزير المتطوع
بجـامع الزيتونة والمدرس بمدرسة ترشيح المعلمين

الشاعـر

والشاعر المصور بقصائد شعره خلجات القلوب في الفرح والترح . والـذي يمتد حسه وشعوره الى من باتوا يتقلبون في اعطاف النعيم . ويمرحون في ظلال الحظوظ المقبلة بالخيرات والبركات . والى من باتوا هالكة اجسادهم . فانية ارواحهم . كسيرة اجنحتهم . من اولئـكم الفقـراء الذين تـكشفت لهم دنيا ايامهم عن وجه كالح عابس . واظفار تقطر من دمائهم . وانياب تنهش قلوبهم وكبودهم . في غير ما شفقة او رفق . والى من باتوا في لهب الاحقاد . ونقم الضغائن . يتوثبون للفتك . متعطش ظمؤهم اللهيف الى الدماء المسفوكة . فما يزالون من شر تناكرهم . ولجاجة خصامهم وتناحرهم في نكادة عيش وهم واصب . والى من باتوا في وادي الحب الامين وقد تآلفت ارواحهم وتعانقت . وطفحت بخمرة منعشة من لذة الفرح قلوبهم . فرفرفت وحلقت

يمتد حس الشاعر وشعوره الى هذا والى غيره من حوادث الحياة المستجدة مع الليالي والايام . ويستنطقها مستلهما . فينطق امامه . ما ظهر منها وما استتر . وما غاب في طي الزمـان وما حضر . باوضح عبرة بالغة . واجل لحظة صادقة . يعيها حسه وشعوره . ويحيط بها ويحافظ عليها . ثم ما يزال ينظر اليها نظرات فاحصة ملؤها السكينة . والهدوء . ويتفرس جوانبها تفرس الممعن اليقظ . حتى لكأنها من ذخر تجاربه في حياته الخاصة التي كان يتلقاها . ويسير في محافل دروبها مع غيره من سائر الاحياء . وكذلكم يصف « روسكن » المصور والشاعر . فيدلنا بوصفه الدقيق . على انهما من خلق اليف الشبه مثيل الفطرة قريب الموهبة . اذ يقول (ان كلا من الشاعر والمصور . يلتقط في ذاكرته كل ما رأى او سمع طول حياته . ويحفظه بالدقة التامة . كما تحفظ الاشياء في المخازن . فالشاعر لا ينسى أتفه الانغـام التي كان ينصت اليها في باكورة عمره . والمصور لا ينسى ارق طيات الثوب . واشكال الالوان والاحجار . وفي هذه المعارف المنوعة . التي هي غير محدودة يهيم - الخيال - فيستخرج منها في اي وقت شاء مجموعات من

الاراء والاغـراض . والصور المتناسبة . المنسقة . الدقيقة . واخيرا هذا البيان الفـني العجيب) وايسر ما نستطيع استخلاصه من كل ما تقدم لنا من قول هو ان نعتبر الخيال اصلا يقوم عليه الفن في جملته

فالجهة الاولى للفن هي ان يكون هذا القلب الموهوب راغبا . تائق النزعات . متوثب الطموح . مجدا كل الجد في طلب الحقائق . وتحصيلها . والمحافظة عليها . واستبقائها حية مجسدة . في ذخر الذاكرة . ومسارح الخيال

والجهة الاخرى هي محاولة اظهار تلكم الحقائق في نسق بديع مبتكر طريف . فيه من الجمال والفائدة . والتأثير . ما يكفي لجعل الطبيعة . ولا شيء يفوقها في بهجتها وجمالها وسحرها وخلابتها . غير الفن . يقول ـ افلاطون ـ (اذا قارنت بين رجل هو كما صيرته الطبيعة وآخر صار كما صيره الفن . ظهر لك صنع الطبيعة . أقل جمالا . وانقص كمالا . وذلك لان الفن اكثر اتقانا واحكاما) واقول ولان آثار الفن مصطبغة بلون خيالي نلمح في شعاعه الزاهر نزعة النفس البشرية الراغبة في الكمال . الطامحة الى السمو . وهذا دون شك يجعل الفن في مقام فوق مقام الطبيعة . وما فيها من الكائنات .

فنفوس اولئكم النوابغ الذين ولدوا على فطرة الفن الراسخة . والذين زودهم القدر باقدس المواهب . هي اشبه شيء بالاناء فيه مادة ملونة . تحل فيـه الاشياء فتصطبغ بذلكم . فاذا ما برزت للوجود ثانية . برزت على اصلها الاصيل . وعلى هذا اللون الخاطف الجديد .

وهكذا يرى الاديب الشاعر . ويسمع ما في الحيـاة . والوجود . وما في الطبيعة من الصور والمظاهر . فلا يقنع بما يكنزه في ذاكرته الواعيـة الحافظة . بل تراه . وكانك به في سكينة ذهوله . واحلام يقظته . يغوص الى قرار سحيق الاغوار من اعماق تلكم الاسرار . ليستخرج من اصدافها المغلقة . ما شاء من معاني الجمال . والعبرة . وليصور منهـا ما شاء بعد ذلك من الهياكل التي يغمرها ما يعج في جنبات ارجائها من زكي النفحات الحالمة . والاعطار الفائحة .

كذلكم يتصور الشاعر ما يصور من المشاهد والمناظر . فلا يتناول المادة في جمودها وخرسها . بل تجد لتلك العبقرية الفنية روحا تبعث في اصلاب الجامد الاخرس . والساكن الصامت . من كل شيء فاذا هو ينسلخ من صفـة الجمود . ويخرج عن طور الخرس والصمت . الى الحركـة . والعمـل . والقول . والافصاح .

واذا شئتم فاستمعوا لابن الرومي يصف الروضة الاريضة . وقد تهيأت لتوديع الشمس الغاربة . يقول . من قصيدة الباسق .

اذا رنقت شمس الاصيـل ونفضت — على الافـق الغربي ورسا مذعذعا
وودعت الـدنيـا لتقضي نحبهـا — وشـول باقي عمرهـا فتشعشعـا
ولاحظت النـوار وهـي مريضـة — وقد وضعت خدا الى الارض اضرعا

كما لاحظت عـوادة عين مدنف توجع من اوصابـه مـا توجعا
وظلت عيـون النور تخضل بالندى كما اغـرورقت عـين الشجي لتدمعا
يداعينهـا صـورا اليهـا روانيـا ويلحظن الحاظا من الشجو خشعا
وبين اغضاء الفـراق عليهمـا كانهما خـلا صفـاء تـودعا
وقد ضربت في خضرة الارض صفرة من الشمس فاخضر اخضرارا مشعشعا
واذكي نسيم الارض ريعان ظله وغنى مغني الطيـر فيـه مسجعا

ألسنا في الفردوس ؟ ألسنا نشعر ونحس بحركة ونشاط . وبيان وافصاح ؟ ألسنا نرى في ظلال هذا الوصف روحاً حية . تعرف الطرب والقصف . والضحك . والبكاء . والحزن الكئيب . والفرح العاثر النشوة ؟ ألسنا نرى خشوع الجلال ويأس القنوط ووحشة البين وهول التوديع ؟ ألسنا نرى كل هذا في هذه الدموع الحائرة المتعلقة باهداب الزهـور والنوار . وفي هـذه الشمس الغاربة . تعاني المرض الهالك . اذ تداعت الى السقوط . واحنت في ضراعة الانكسار . وذهول الاغضاء لتضع خدها على الارض . وفي هذه النظرات العاطفة . التي تمتد قصيرة اللمح لتشهد وفـاء الروضة يتجلى في اروع معانيـه واتم صورة ؟

ثم أليس من الحق ان نقول بعد هذا كلـه . اذا كان المصور قـد استطاع ان يتسامى في عرض مناحي الجمال . وان يبدع كل الابداع في تأليف الوانه وتنسيقها . وان يفتن في تجويد هذا العرض الى حد بعيد . وبذلكم تمكن من اثارة الاحاسيس . والعواطف في نفوس النظار . فان الاديب قد تمكن ايضا من ذلكم معتمدا نفس الوسيلة المرهفة النافذة ؟ وهل غير الخيال . جعل هذا الوصف قويـا في جدته وطرافته . آخذا بجماله وسحره ؟

الخيال

فالخيال عنصر له خطره واهميته في حياة الفن . ولا اتردد اذا ما قلت له اعظم خطر في حيـاة البشر . فهو نبع السلوان . وفيض المسرات . وهو مسرح الآمال وهو النور الـذي بلعلعة إشراقـه . ووضاءة سنائه . ترى الانظار الطامحة قدسية المثل العالية . هو الذي اوجد الحضارة وخطر بها على معبر العصور من القديم الغابر الى الجديد الحاضر - لولاه ما افتن كاتب ولا ترنم شاعر - ولولاه مـا صدح الوتر بمستعذب النغمات والالحان . ولا استحلت صور الهياكل . وبهيج المناظر عينان . يقول الاستاذ « ولتون » من مشاهير علمـاء النفس الانجليز في حديثه عن منزلة الخيال في رقي النوع الانساني . (ان رقي النوع الانساني من الفه الى يائه يرجع الى شيئين هما : تخيل امور خير من تلك التي في محيط بيئتنا . وبذل الجهود في سبيل ابرازها الى عالم الحقيقة . وما الكنوز التي ورثناهـا عن الماضي

الا صور مجسمة للخيال سواء في ذلك العلوم . والفنون . والآداب . والموسيقى . والقانون . والانظمة الاجتماعية . والاخلاق . والعقائد الدينية . اذ من المستحيل ان يتصور الانسان ما هو اعلى منه منزلة بدون خيال)

الى هنا وقد اوضحنا وجه الصلة الوثيقة بين هذا العنصر النفسي الذي بوحي الهامه وشعلة ضيائه بخلقه وابتكاره . بحدته وطرافته . قوي الانسان على حل الكثير من هذه الاسرار المبهمة في مظاهر الكون . ومشاهد الطبيعة . وتعابير الحياة . وبهذا العنصر النفسي العجيب استطاع الانسان أن يقف وقفة العابد الناسك في محراب الجمال قريبا من عرش الجلالة . من قدس الرب . من الله الذي لا أول له ولا آخر له . (وإننا في حبنا للجمال لمحبون عابدون لذلكم الوجود الكامل المطلق الذي لا حد له ولا نهاية .

ولعلي بهذه المقدمات أوشكت أن أثبت في نفوسكم شيئا . وأن أزيل من نفوسكم شيئا آخر . أوشكت أن أثبت في نفوسكم صدق النظرية التي يذكر علم النفس في بيان الوسيلة التي يعتمدها الفن والادب في إثارة ما ينبعث في النفوس من تيارات العواطف وهزات الشعور . واوشكت أن أزيل من نفوسكم ما كنا نفهمه في القديم من كلمة الخيال . فالكثير من الناس على انه ضرب من اللهو العابث . والزخرف الذي لاشي وراء لعلعته وبريقه من الحقيقة والصدق . واكثر من هؤلاء من كانوا يفهمون من كلمة الخيال الشعري بوجه الخصوص . ذلكم التكلف والاعتساف في صيد الخواطر النابية . ونظم الاستعارات . والتشبيهات القلقة الضاربة الى ابعد حد في الغرابة . والشذوذ . وتقييدها بخيوط النظم . ولفها . ونشرها على اوضاع مختلفة متعاظلة .

فكأن الخيال في نظر هؤلاء أن يمعن الشاعر في طلب ما يستحيل حضوره في الذهن الا من طريق الوهم الباطل . والبهرج الذي لا ينم عن أصل ولا ينسب إلى أصل . وما كان يفيدنا الخيال . لو كان حقا ما يفهمه هؤلاء المبطلون ؟

ومهما يكن من شيء فالذي يتحصل لنا من كل ما تقدم . ان الادب كالفن يقوم على اصلين لابد منهما . أولهما قدرة الاديب على تعرف الاشياء كما هي . واكتناهها والتقصي في فهمها . وثانيهما عرضها عرضا قويا طريفا . يستفز كوامن النفس بما فيه من بداعة وجدة مغرية . يقول الاستاذ – فكتور كوزن – (الخيالي يعوزه الحقيقي ليكون حيا . والحقيقي يعوزه الخيالي ليكون جميلا . فالاثنان لايفترقان اذ كل منهما تتمة للآخر . والجمال فكرة مستقلة بذاتها وان تكن لا ترى فانها تحس ويشعر بها) اجل الجمال فكرة مستقلة . وهذه الفكرة المستقلة انما يكملها ويجليها الخيال . واذن فالخيال هو العنصر النفسي القوي اللازم لتكميل الفن وابرازه في اشكاله والوانه . ونسوق مثالا لهذا الفن الكامل في حديثنا المقبل

احمد المختار الوزير

التعاضد المتين « ٩ »

(تابع لصحيفة ٢١)

ثم لسنا ممن يجرأ على نصوص الشريعة بالتاويل والحال انه لا قاطع يوجب التاويل ولو كان قاطع ما اختلفوا فيه فالتجرؤ على التاويل لغير دليل قطعي هو ما نعاه القرءان على من نزلت بهم المثلات . وحيرة تلك الطوائف في اختلافها مع ان كل طائفة ما كانت تقصد الا الوصول الى الحق تجعلنا نحجم عن تاويل النصوص خوف افسادها وان الاولى بنا هو الوقف . ثم عدم الجزم بالتاويل اذا استند لدليل ظني . وهكذا نقول الآن عند ما ظهرت مخترعات ومكتشفات فإنا نحجم عن الجرأة على تاويل النصوص بما يطابقها الا اذا ظهر بالتجربة العلمية القطيعة والامتحان الفني اليقيني انها ليست فكرة قابلة للتغير مع تغير الزمان والكشف عن مخترعات اخرى .

اما اذا كان هناك ادنى احتمال لتغير الانظار وتحول الافكار مرة اخرى وكان الامتحان ليس يقينيا حسيا . فالواجب هو ترك النصوص على ظاهرها تهيبا لحرمة الشريعة نعم يمكننا ان نقول ان هذه النظرية يمكن ان ينطبق النص عليها من غير ان نجزم بانها مراد الله خوف ان نقع في الكذب على الله - ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون - ثم اذا لم تثبت تلك النظرية وظهر فسادها نجونا من الجناية على القرءان بحمله على معنى لا يصح . كما جنى من طبق عليه انبساط الارض وكون الشمس تدور حولها وان الارض هي مركز الافلاك وانها ثابتة لا تتحرك الى امثال هذا من كون الارض فوق قرن ثور وان الثور على الماء والماء على الهواء ونحو هذا من افكار اسراءيلية لا ثبات لها في كتاب صريح ولا حديث صحيح بل خرافات خيالية وكل من طبق القرءان على امثال هذا وشرحه به فقد جنى جناية كبرى اوقعته في ضلال مبين .

فالقرءان شريعة عامة وأبدية فيجب على المفسر ان يكون دائما يستحضر هذا المبدأ وان لا يفسر القرءان الا بما هو ظاهره الا اذا قام دليل قاطع على التاويل . ومن هذا الباب من يفسره بالاشارة ويحمله من انواع المعاني الخيالية ما هو بعيد منه فكل ذلك خطر في الدين والى الضلال اقرب الا اذا قامت قرينة على ذلك

قال سعد الدين : النصوص على ظاهرها والعدول عنها الى معان يدعيها الباطنية او غيرهم الحاد . كما يجب على المفسر ان يكون مستحضرا لعظمة القرءان وانه منزل من حضرة القدس لهداية الخلق فكم من رأي كان قطعيا يقينيا عند من يراه فتبين انه محض خيال وكم من فكرة كانوا يعدونها وهما وشاذة فاصبحت كلمة اجماع . فالمسلم الخالص المخلص بيده برنامج عظيم للحياتين هو القرءان الكريم

معارضات

قصيدة عامر ابن هشام

وصف ألاديب الكاتب الناظم الناثر امام البلاغة الشيخ محمد الورغي شاعر الامير علي باشا الاول لمنازل تونس مجاريا لقصيدة عامر بن هشام في وصف منازه قرطبه التي مطلعها :

يا هبة بكرت من نحو دارين — وافت الي على بعد تحييني

وعلى منوال قصيدة الورغي نسج ادباء تونس من المتاخرين كالوزير احمد بن ابي الضياف والشيخ الباجي المسعودي وقد اثبتنا الجميع هنا تخليدا لادب تونس في القرن الماضي (معارضة الشيخ الورغي)

باشر سعودك ليس الوقت بالدون — واجعل صبوحك عند (باب سعدون)

واصحب الى الانس جذلان الفؤاد اذا — طغت حمياك قاد الصعب باللين

ماذا التوقف عن عيش تسر به — وقطع انك في حدس وتخمين

فاخلع عذار التوقي من عواقبه — ما الحزم تركك قطعيا لمظنون

اما ترى الروض قد القى السحاب به — على طريق الغوادي اي بزيون

قد وشحته فنون النور وانبسطت — على خمائله ظل الافانين

كانما قزح لما تقوس في — ارجائه رشه من كل تلوين

وقف هنا (بابي فهر) المجيد فقد — مضت به دولة الشم العرانين

ترى (الحنايا) كسطر النخل مد به — بعض لبعض بمجني العراجين

او خرد نهضت للرقص فاعتنقت — كي لا تجيء برقص غير موزون

والسنة الصحيحة. فيجب عليه ان يلحظهما بملاحظ العظمة والجلال لينتفع بهما في الحال والمئال. ان القرءان هو الذي كون انسانا كاملا ومثلا اعلى من مثل الامم. والقرءان هو الذي حفظ لنا الامة وجللها بجلال الحرمة وهذبها ونماها مع الاجيال في ماضي الاحقاب وهو المخلص لنا من اوحال الحياتين عند ذي العزة والكمال.

وهو شرع تام اكمل وأرقى شرع عرفه البشر موافق لمواهب العقل ومكتشفات العلم الحقيقي يحدو بنا للكمالين. ويبوؤنا متبوأ النعيمين ولا يحجزنا عن البلوغ لاي مرتبة من مراتب المجد بل يعيننا ويرشدنا الى بلوغ غاية الغايات ويهذبنا تهذيبا يهيئنا للسمو الذي ليس بعده سمو. فما دمنا متمسكين به ونحن مفلحون.

يتبع

ولست صاحب ظرف ان مررت على (مرسى) الظريف ولم تنزل الى حين
(والعبدليات) تحكي في تصنعها ضرائرا جئن في غنج وتزيين
وما مقيم لدى الافياب بـ (سكرة) على القلالية الغرا بمغبون
ولو وقفت (بقمرت) التي جمعت شطوطها بين مرعى الضب والنون
ومل (لمنوبة) وقت العشي اذا ماج الاصيل بها بين البساتين
وانظر الى (القصر) والاخرى تناظره مثل البيادق طافت بالفرازين
والطير تصدح في حافاتها زمرا جموع عجم اتت بعض الدواوين
ورح لـ (رادس) العليا وقبتها بين الفرادس تبدو مثل شاهين
حتى اذا ما قضيت البعض من وطر ورمت ايقاع فرض بعد مسنون
فاركض الى ضحوة (المركاض) وانس بـ ...ها ما كان عندك من وحي الشياطين
واحضر عشية باب البحر مغتبطا فربما نفست عن كرب محزون
اما ترنجة) فهي البرء لو سلمت ساحاتها الفسح من لسع الثعابين
وارجع الى البيت من (باب المنارة) او (باب الجديد) الى سوق الرياحين
وطف من (البركة) المعمور (جامعها) الى (الرباع) الى ركن (القرسطون)
واخش الجمار لدى (بير الحجار) اذا سعيت منها الى (حمام زرقون)
وان خرجت الى (روض السعود) فقف كما عرفت وبت في (درب زيتون)
تلك المنازل لا (الزهرا) (وقرطبة) كلا لعمري ولا غيطون (جيرون)
فعد سوائحها ان امكنتك وان تعسرت فاستعن من مثل بركون
ولا تصد غير ساجي الطرف ذا حور فانت في غير هذا غير ماذون
واستمنح السعد من عند الجواد به واستغن ان نلته عن مال (قارون)
ولا تقل كيف يدنو ما أأمله فان مغزاك بين الكاف والنون

وللشيخ الوزير الكاتب ابي العباس احمد ابن ابي الضياف
حين كان في اسطامبول متشوقا الى تونس سنة ١٢٥٨

نسيم تونس حياني ويحييني والطيب منه اذا ما تهت يهديني
لا غرو ان تاه قلبي في محبتها فأصل نشأته من ذلك الطين
اذ وجهتني لارض لا تلائمني وحبذا امرها يزكوا ويرضيني
قاسى فؤادي اهوالا يذوب بها اعوذ بالله من همز الشياطين
بالله يا نسمة ان جئت تونس قف وانشر سلاما لها من قلب محزون

واستفتح النور من (طود المنارة) اذ يبدو لمنظرك (الباجي) على حين
ترى مراسي حلق الواد زينتها شوامخ السفن كالطير الميامين
فانظر مدافعه واعرف عساكره في البر والبحر حازوا خير تمكين
ونزه العين في تلك البقاع وطف على الحصون ومأوى عسكر الدين
واسرع الى قشلة القنديل ان بها سمط المدافع في زي الثعابين
طوابر الاسد في آجامها ربضوا ان فاه آمرهم لبوه في الحين
زادوا لاقدامهم ترتيب حربهم واتقنوا نظمه من غير تخمين
ان الحنايا كنوع من وقوفهم لا مثل نخل لمجني العراجين
قادوا الصواعق في سهل وفي جبل طاروا باثقالها مثل الشواهين
واستنطقوها اذا حنوا النغمتها اصواتها عندهم رجع التلاحين
وسرح الطرف في قصر الامارة من ارجائها اذ بدا في كل تلوين
مرصع بنظام فاق نظمهم سلك الجواهر في تلك الاساطين
غيل الملوك ومأوى كل ذي شرف بقاعة شرفت اهل الدواوين
ديوان كتابها ديوان حسابها ديوان قوادها اهل القوانين
وغيرهم من جموع طاب نشرهم طيب الرياض بانواع الرياحين
قاموا بخدمة مولاهم وطاعته فلن ترى خطوة في غير مأذون
مدار عصبتهم مأمور سيدهم فيما يصرف من صعب ومن لين
واعطف على قشلة الفرسان تبصرها تلفعت وتردت بالبساتين
عقبانها من ظهور الخيل قد نبتوا مثل الجذور تنقت من افانين
تطير للبأس في الهيجا جيادهم فاعجب من الجرد تجري بالموازين
واستحضر العيش بالخضرا وساكنها واسعد باتيانها من باب سعدون
اصل العلوم ومأوى الصالحين بها ومركز الدين من فرض ومسنون
أنس الغريب بها ينسى مواطنه وموضع اليسر من عيش المساكين
ومتع النفس من مرأى محاسنها وانظر مشاثر من شم عرانين
واعبر الى القشلة الكبرى بعسكرها وانظم من الدر في نسق الاساطين
غاضوا مُحاربهم عزوا محاربهم زانوا بصولتهم كل الميامين
وادخل مساجدها واذكر محامدها وصف معاهدها وصف المجانين
والجامع الاعظم اجمع من فرائده ما يقتني لنحور الخرد العين

قد زانه احمد ذاك المشير ومن | به الايالة في عز وتمكين
كتائب الكتب اهداها وقد عجزت | عنها الملوك ولا هموا بتخمين
قوى بتسييرها تايد عسكره | اذ مرجع الكل في التحقيق للدين
يا حسنها وهي بحر في خزائنها | يغنيك جوهرها عن جوهر الصين
وكم له من فعال لا عداد لها | تبقى مع الدهر شجوا للملاعين
لا زال يلبس والتايد يصحبه | ملابس العز مع تاج السلاطين
ما قال صب من الاشواق في قلق | نسيم تونس حياني ويحييني

وللشيخ الاديب الكاتب الرئيس ابي عبد الله محمد الباجي المسعودي مسايرا للشيخ الوزير الكاتب ابي العباس احمد ابن ابي الضياف تغمدهما الله بواسع رحمته

حي نسيمك حتى كاد يحييني | يا تونس الانس والسلام والدين
سرى عليلا وأومى بالسلام الى | مضنى بحبك ناءي الدار مغبون
فجد بي الشوق واستولى على جلدي | وصرت اخفيه حتى كاد يخفيني
وبت في حرق والطرف في ارق | والنوم اعصيه احيانا ويعصيني
سقى ربى تونس الخضرا وساكنها | سحب من الغيث ترضيهم وترضيني
ولا أذاقني الرحمن فرقتها | فانه موجب ضعفي وتوهيني
ربع الاماني ومأوى كل ذي ادب | ومكنس للمهى والخرد العين
منشى شبابي واترابي ومرضعتي | ثدي السرور الذي ما زال يرويني
قم يا نديم نباكر روضها سحرا | فالسعد قابلنا من باب سعدون
اهدى الربيع لنا ظرفا وتكرمة | نسيم انفاسه ضمن الرياحين
اما ترى اعين الازهار غامزة | للهو والقصف للافراح تدعوني
ساعد اخاك الى (اريانة) فبها | روض توشى بوردي ونسرين
واغنم بها نفس الاسحار مصطبحا | من خمرة عتقت في دير عبدون
ومل لـ (شطرانة) عند الغبوق وقف | واطلب بها ما تشا يأتيك في الحين
و (جعفر) لاذوت اغصانه وسقت | ثغور ازهاره بنت الزراحين
ظل ظليل وماء كالسلاف على | رجع النواعر ربات التلاحين
وارتد لنفسك في (رواد) منزلة | واخلع عذارك فيها خلع مامون
واحمل الى شاطىء المرسى (وقبتها) | خمرا مشعشعة من خمر برزين
وواصل الانس وارفل في ملابسه | وانزع به الكاس واشربها وسقيني

وسرح الطرف مرتاحا ومبتهجا في خضرة البحر حينا والبساتين
والغيد تمرح والغزلان تسبح ما في البرضب ولا في البحر من نون
تلف العذول عذيرا في خلاعتها اذ حسنها ناب عن نصب البراهين
واسلك الى (شامخ الباجي) وتربته واسأل هناك عطاء غير ممنون
حتى اذا ما بلغت الحد من طرب وأبت للجد بعد اللهو واللين
فاسرع الى (حلق واديها) وشمه ترى ما خلدته يد الشم العرانين
ترى به الفلك بالابراج محدقة مثل البيادق طافت بالفرازين
تزينت بصفوف من مدافعها سود فواغر امثال الثعابين
وسل (ابا لحية) ذاك المجاهد عن فعاله في اعاديه الملاعين
وادخل الى القشلة الكبرى فان بها جندا مفاخرهم بالمجد تغريني
اسد العساكر في أجم السلاح جثوا لنصر سلطانهم والقطر والدين
في سورة الصف من احوالهم مثل لا زال سعدهم في حرز ياسين
واركض إلى قشلة الفرسان تلف بها قوما كراما على غر ميامين
تحكي قواضبهم لمع البروق دجى من كل عضب بماء النصر مسنون
وفي فنى قشلة القنديل اسد شرا قد تاجروا الله تجرا غير مغبون
الحزم والصبر والاذعان دأبهم في حسن سمت بوعد النصر مقرون
وان وصلت إلى (قصر الخلافة) قل حييت حييت . يا مأوى السلاطين
يا قبة العدل يا دار الامارة يا ملجا لكل غريب الدار مسكين
لا زلت تخلد في عز وتكرمة لسادة العصر ارباب الدواوين
فيا منازل ذي فتك وذي نسك ويا معالم تلحين وتأذين
انت المنازل حقا لا منازل من يقول ياهبة من نحو دارين
ما شاد ذكرك قبلي من يقول بها باشر سعودك ليس الوقت بالدون
حذوت . حذو أبي العباس احمد في نسيم تونس حياني ويحييني
فخري وذخري واستاذي الشهير ومن وجدي به في تجاويف الشرايين
مثنى الوزارة من سيف ومن قلم ومنصب غير محتاج لتبيين
يدوم في العز فذا لابسا أبدا سعادة من الاه الكاف والنون



الخطوط الكوفية

وتاريخ ادوارها بالقيروان

بقلم الفاضل المؤرخ الشيخ محمد طراد

كان الخط الكوفي اولا مهملة جميع حروفه لا اعجام فيها أي لا نقط وهذا في دور النبوءة والخلفاء الراشدين وما قبله . ومنه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم للمقوقس الـذي عثر عليه أخيرا بدير بعض الاقباط بمصر وأخذت صورته بالفوتوغرافيا . ثم لما اتسعت الفتوحات الاسلامية واختلطت عناصر الاسلام ووقع اللحن والتحريف وحل محل الاعراب الذي كان سليقيا عند جميع العرب وخيف تسربه للقرآن العظيم وقراءة المصحف الشريف ووقع ما هو مقرر في سبب وضع علم النحو . جعلت علامات الاعراب نقطا حمرا توضع على الحرف الاخير موضع الاشكال التي توضع على الحروف اليوم . فالضم نقطة حمراء توضع في السطر حذو اخر حرف من الكلمة مثاله قبل . بعد . واذا كان تنوينا أي ضمتين توضع نقطة اخرى ثانية فوق الاولى مثل قتال : من قوله تعلى قتال : فيه وكفر : والنصب نقطة حمراء أيضا فوق الحرف كقوله عندَ الله والخفض نقطة حمراء ايضا أسفل الحرف كلفظ الجلالة في قولك عندِ الله وهذا يوجد في كثير من بقايا أوراق بعض المصاحف العتيقة المحفوظة بمكتبة الجامع الاعظم بالقيروان . والاغرب أن العبدري ذكر في رحلته أنه اطلع على مصحف بهاته المكتبة قيل له إنه المصحف الذي بعثه سيدنا عثمان لاهل افريقية . وبينه بقوله في ورقاته : طوله شبران وعرضه ثلاثة أشبار . واليوم توجد أوراق بالمكتبة بهاته الكيفية وهاته المساحة وعلى هذا النمط فلا يبعد أن تكون هاته الاوراق من هذا المصحف بعينه . ثم استعمل إعجام الحروف التي كانت سابقا مهملة لكنها استعملت في صورة أشكال صغيرة فوق الحرف وباسفله . وجعل للقاف شكلتان وللفاء شكلة واحدة فوقهما . وفي هذه الاونة الذي هو الدور الصنهاجي توجد أيضا هاته الاشكال بصفة اعراب ويبقون الحروف كلها مهملة لا نقط بها . وهذا يطبقه الراءي في مصحف فاطمة حاضنة باديس الموجود بقايا من أوراقه بهاته المكتبة . هذا ما يتعلق بكتابة المصاحف بهذا الخط الكوفي أما الخطوط التي تنسخ بها الكتب العلمية وأوراق دواوين الحكومة وسائر الكتابات العمومية . فكلها مهملة لا إعجام فيها ولا اشكال . ودام ذلك على هاته الحالة حتى الدور العبيدي والصنهاجي . أما الكتابة بالنقش على الصخور بالخط الكوفي فهي من أول الامر إلى أن انقطع استعمال الخط الكوفي حروفه كلها مهملة . لكن في الدور الاغلبي كان بحفر الحروف في الصخر ودام حتى لاواخر الدور الاغلبي أي لما قبل المائتين والخمسين من الهجرة وما يقرب من ذلك . ثم في أواخر الدور الاغلبي إلى انقراض استعمال الخط الكوفي كانت الاحرف كلها بارزة ولا يوجد حرف بصفة حفر ثم صار يتأنق في جمالها حيث كان لها سوق خاص وهو سوق النقاطين اليوم الموجود بالنهج الكبير بالقيروان وفي الدور الصنهاجي أدخلوا عليه تحسينا ياخذ بمجامع القلوب وهو جعله في وسط أغصان ازاهر كالكتابة الموجودة إلى اليوم في الالواح التي على بيت المعز ابن باديس بجامع القيروان . وعلى كثير من مشاهد قبور الجناح الاخضر لمشاهير الرجال والعلماء .

بحوث تونسية

تعليم الاهليين

أبرز موظف عال فرنسي ممتاز بالذكاء وجودة القريحة رسالة تحت هذا العنوان جمع فيها ما كان كتبه في فصول متفرقة بمجلة « لجنة افريقيا الفرنساوية » في عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ فتعرض في هذه الرسالة للادارة المركزية ولرجال السلطة الاهلية ولكيفية سير الرقابة الفرنسوية التي اقتضتها الحماية وللحريات العمومية ولتعليم الاهليين ولتطور النظام العقاري البري وللاصلاحات الادارية التي أنجزت في سنة ١٩٣٨ على عهد المقيم السالف م. أرمان قيون

ونحن نحب في هذه العجالة أن نترجم بعض فقرات من القسم الذي عنوانه « تعليم الاهليين » حتى يتبين منها قراؤنا الكرام فكر المؤلف في هذا الموضوع الهام

فمن جملة ما قاله : إن برنامج الصادقية الشبيه ببرنامج المدارس الاسلامية بالمغرب يرفع التلامذة لمستوى من الثقافة الفرنساوية قريب من مستوى الباكالوريا ويهبهم ثقافة عربية تضارع ثقافة جامع الزيتونة

بيد أن هناك فرقا بين تثقف خريجي الليسي وبين الصادقيين فالاولون يميلون في الغالب الى التحرز من كل القيود بينما الثانون يبقون متمسكين أكثر من الآخرين بعقيدتهم

أما الذي يتفق فيه الطرفان فهو ان تعليمنا ينمي فيهما إحساسا مليا حادا للغاية ويمكننا أن نشاهد بأن قادة الحركة الدستورية قد كونهم تعليمنا الثانوي وإذا فكرنا بأننا اليوم نعطي هذا التعليم لالف وستمائة أهلي « في جملة ٦٥٠٠ تلميذ بالمعاهد الثانوية » جاز لنا أن نخشى إنقلاب أركان الدستور في يوم قريب جيشا عرمرما

ثم قال : ينتقد الفكر الاسلامي العام علينا جعل الثقافة العربية ذات قسمة ضيزى في التعليم الابتدائي وعدم جعل اللغة العربية من جملة المواد الجبرية في امتحان الشهادة الابتدائية

وإذا شئنا أن نبحث عن أحد أسباب نمو المدارس القرآنية العصرية بسرعة التي تخصص للتعليم العربي والاسلامي المقام الاول وللتعليم الفرنسي المقام الثاني وجدناه في ضعف المواد العربية في تعليمنا الابتدائي وفي لائكته

وفيما يخص عدم انتشار التعليم كما يجب قال: «على الرغم من المجهود الذي بذلناه لتوسيع نطاق التعليم بالايالة التونسية لا يزال الجانب الاوفر من الشعب غارقا في لجة الجهالة فمن ٣٠٠٠٠٠ من التونسيين الذين هم في سن الدراسة لا يزاول التعليم في مدارسنا الابتدائية إلا ٤٢٠٠٠ طفل من أطفال الاهليين ولا يغشى المدارس القرآنية العصرية إلا بضعة آلاف فقط

على ان الصحافة الاهلية لم تنفك تنتقد علينا ترك خمسة أسداس السكان في خضم الجهالة والامية وبذلك تتبدى نحونا في ثوب المنكر للجميل . فهل هي تجهل ان مصر وهي البلاد التي تستقي منها تلك الصحافة مثولها وأقيستها لم تستطع أن تنشر التعليم أكثر مما استطاعته هذه البلاد وان الامية فيها متفشية أكثر مما هي متفشية في تونس

وقال في خصوص المدارس القرءانية : « إن هذه المدارس هي مدارس حرة انشئت بسعي من بعض المحسنين لكنها لاتقوم اليوم في الواقع ونفس الامر إلا بفضل الاعانات التي تمنحها اياها الحكومة وهي إعانات نمت مقاديرها بسخاء تام استجابة لضغط القسم الاهلي من المجلس الكبير

وهذه الاعانات قد اغرت بدون شك ارباب الشهادات العلمية الذين يريدون تكوين مرتزق لهم باحداث مدارس من ذلك النوع . وذلك هو احد اسباب تكاثر ذلك الضرب من المدارس ومن اسباب انتشارها ايضا هو انها لما كانت غير خاضعة الا لرقابة خفيفة فانها يمكن ان تتالف منها وسيلة طيبة للغاية لنشر المبادي الملية من اجل ذلك نرى ان نشر المدارس القرءانية هو من دواعي الاهتمام المستمرة للدستوريين . .

واذا كان التعليم القرءاني العصري يحظى بعطف المليين التونسيين فانه يلاقي معارضة عنيفة في الاوساط البيداغوجية والماصونية التي ترى فيه – ولها الف حق في ذلك – حائلا دون صبغ الايالة التونسية بالصبغة اللائكية وهذه اللائكية هي التي يؤمل منها مثلما كان يؤمل فيما سبق بواسطة التنصير التوصل لمزج العنصرين او على الاقل تقريب مسافة الخلف بينهما .

ولقد لاحظ الماسوف عليه الكولونيل مارتي اثناء مسامرة قام بها ان الشرق العربي يتقرب الى النظم العصرية بدون جنوح للائكية بخلاف تركيا فان اساس نظمها العصرية هو اللائكية . وليست مهمة المدارس القرآنية العصرية في الواقع الا حفظ العقيدة الاسلامية مع التوفيق بينها وبين العلوم الحديثة . ولن تؤول في آخر الامر الا لتوسيع الشقة التي تفصل بين العالم اللاتيني وبين العالم العربي .

وقال المؤلف في خصوص الجامع الاعظم ما مفاده ان حركة النهضة العربية قد شملت ايضا ذلك المعهد الديني وتناولتها مثل جامعتنا العلمية في القرون الوسطى المعارك بين القدماء والمحدثين ثم قال ينبغي قطع دابر النزعة التي ترمي تدريجيا لادخال جامع الزيتونة ضمن المؤسسات الدولية وذلك لسببين اولهما اجتناب النفقة الباهظة التي تترتب على ذلك بالميزان وثانيا لحفظ سمعة ذلك المعهد الديني . ضرورة ان العلماء الذين اعمتهم الارباح المادية التي قد يجنونها من صيرورتهم موظفين قد غاب عنهم ما يحيق بهم من نقصان في نفوذهم حين يخضعون لادارة هي لائكية بطبيعة الاحوال وتسير تحت رقابة فرانسا .

وليس بممتنع تمكين اساتذة الزيتونة في آن واحد من استقلالهم الفكري ومن عيشة يسر وذلك بتنظيم تلك الجامعة على مثال مؤسسة ذات فائدة عامة تنجر لها اعانات من الأوقاف ومن الدولة

وتباشر التصرف في مداخيلها وادارة شئون مستخدميها بنفسها وهـذا هو نفس النظام الجاري به العمل في الجامع الازهر . . .

واردف ذلك بقوله « لو يتم لاساتذة الجامع الاعظم مرادهم من نيل مرتباتهم من مخصصات ميزان التعليم الدولي اذن لن يبق لهم الا المطالبة باعتبار التعليم الـذي يمنحونه هو التعليم الوحيد القانوني في مملكة اسلامية تاركين لفرانسا مهمة القيام بمدارسها اللائكية والفرنسوية على نفقة ميزانها الامبراطوري . . . »

« لقد كان التعليم بتونس قبل انتصاب الحماية ضليل الانتشار ضعيفه . وكانت اساليبه باليـة عتيقة تهتـدي بالتعاليم القرآنيـة خاصة وبفضل فرانسا قد اقيمت مدارس عصرية ذات ثقافة لاتينيـة ازاء الكتاتيب والمعهد الزيتوني وقد اقبل الاهالي على هاتـه المدارس زرافات . لكن رغم كون الاساليب التي يتلقاها الاهالي بمدارسنا ممتازة عن اساليب التعليم القرآني فانها لم تتمكن من القضاء على هـذا التعليم قضاء نهائيا . بل الامر بعكس ذلك ضرورة ان هذا التعليم بدافع مزاحمة التعليم الغربي اياه قد اخذ يسعى جهد المستطاع في التعود باساليب الحياة العصرية فهل يدرك هاته الغاية ؟

لا نظن ذلك رغم المجهود العظيم الذي بذلته الامم الشرقية للابقاء على مدنيتها بارجاعها لعنفوان شبابها وادخال عناصر جديدة عليها ورغم المجهود العظيم الذي بذلته ايضا هاته الامم لانشاء مصطلحات علمية والفاظ جديدة قد ابقى الاسلام باب الاجتهاد موصدا طيلة قرون عديدة فكيف يمكن ان ينفتح بدافع قوة الناشئات المسلمة التي يدفعها للقيام برد الفعل شعورها بالانحطاط اكثر مما يدفعها لذلك ما يخالجها من مباد نزاعة الى التكوين والانشاء .

ان الثقافة العربية اذا ما وقع تجديدها فانها لا تستطيع ان تستقي قواعدها العلمية الا من المصادر الغربية وبذلك لا يسعها الا ان تكون مدينة بالفضل للثقافة اللاتينية

ويلوح لنا ان حركة تجديد الثقافة الاسلامية ليست الا عاملا من عوامل الدفاع وحفظ الذات وهي ضرب من ضروب المقاومة الروحية التي لا تستطيع الا تاخير الاجل الذي تجرف فيه الشعوب العربية حتما في تيار المادة والمبادي الواقعية الغربية . على ان الثقافة المقتبسة من تعاليم ديكارت الباعثة للفكرة النقدية هي التي تستطيع وحدها ان تحقق لتلكم الشعوب مستقبلا في العالم العصري

بقي لنا ان نعرف هل من مصلحة فرانسا تعجيل هذا الانبعاث ام من مصلحتها بعكس ذلك تنشيط انكماش المحتمين بها في الاثواب الحريرية للفلسفة الشرقية

ان استبقاء الثقافة القرآنية العتيقة التي تمتزج فيها الروحيات بالزمنيات ولو كانت مصطبغة بالصبغة العصرية من شانها ان تبقي بين الفرنسي وبين البربري المستعرب بالشمال الافريقي حاجز الاسلام . غير ان اختلاف اساليب التفكير لا يكون حتما من العوائق دون ارتباط اواصر المودة ، بل انه قد يسهل اسباب العلائق الحسنة اذا كانت الطباع متممة لبعضها بعضا مثلما هو الشان هنا . لان ميل الافريقي للخيال لا يمكنه ان يستغني عن نشاطنا الواقعي

ان الخطر هو ان يكون من نتيجة ادخال الاساليب العصرية على الثقافة الاسلامية فض ذلك الرباط من المصلحة بايهام المحتمين بنا انهم بلغوا درجة النضوج العلمي . واذا كان المليون المسلمون

هم اشد الناس تنشيطا لحركة التجديد الموما اليها فهل ليس ذلك الا لكونهم يؤملون من ذلك فائدة مزدوجة : فالمتعلم العصري سيكون اداة لمبادي التحرير السياسي بينما التعليم القرآني الذي سيمتزج به من شانه ان يبقي الافكار في جو من التعصب الديني وجنوح لاخذ ثار الحروب الصليبية

لذلك فاننا نتساءل عند ما نتصور في آن واحد ماضي امة الشمال الافريقي التي تلقت ثقافة لاتينية وكذلك افاق مستقبلها البعيد هل ليس من اللائق لخلود امبراطوريتنا ان نعطل بل نعرقل حركة الرجوع الى الموارد الاسلامية المجددة بتوسيع نطاق تعليمنا اللائكي واللاتيني شيئا فشيئا الم يكن الامل الوحيد في جعل ابناء هذه الملة متعلقين بنا تعلقا عميقا محصورا في تكوين صلة تعاطف حقيقي بيننا وبينهم من الوجهتين الفكرية والمعنوية ؛ لكن سياسة التعليم اللاتيني والاندماج الثقافي تستدعي ايجاد موارد ارتزاق للمحرزين على الشهادات العليا الذين تكونوا بمدارسنا واغترفوا من مناهلنا والا فانهم سيصبحون نواة حنق الامة التونسية على فرانسا الكريمة المحسنة سيما وان هؤلاء الشبان يعتبرون شهائدهم كاداة تكسبهم حقا صريحا .

واننا نرى اننا اتينا في مشروعنا الاستعماري الماضي هفوة كبيرة لكوننا ساعدنا على تطور الشعوب الاهلية ونمو ما اوتوه من مواهب خارج دائرة تقاليدها بدون ان نتحقق من كونهم سيجدون شغلا بمجرد ما يتم تكوينهم الثقافي . وقد وهبناهم الحريات العامة بدون ان ننظر هل من الممكن تمكينهم ايضا من البرلمان الذي هو من مستلزمات هاته الحريات واننا نسرف اسرافا في نشر التعليم بدون التفات الى عدد المناصب المحدودة المفتوحة في وجه تلاميذنا الاهليين

وفوق ذلك اذا رات فرانسا لزاما عليها ان ترمي لتكوين اندماج ينمو شيئا فشيئا نحو تقريب عناصر امبراطوريتها من بعضها بعضا فلا يظهر من المتعذر ايجاد مجال للعمل لارباب الشهادات العليا من التونسيين الممتازين خارج بلدانهم في الاقطار الافريقية المتاخرة بالنسبة لغيرها او بام الوطن . اذ بواسطة مزج العناصر الجديدة المتكونة منها الامبراطورية الفرنسوية بعائلتنا الفرنسية العتيقة تكون « وطنية امبراطورية » على انه لا يكفي تعليم الاهليين بممتلكاتنا باللغة الفرنسية بل ينبغي ان نكون فيهم قلبا فرنسيا . وهذا ليس بالصعب اذا أردنا ان نتجشم ما ينتج عن ذلك من المشاق . ولهذه الغاية يجب الا يتمادى طلبة شمال افريقيا بكلياتنا على العيش كجالية اجنبية منقطعين عن العائلة الفرنسية اوحانقين مع بعضهم بعضا . ينبغي ان نعدد بتونس وباريس الاتصال بين هذه الشبيبة وشبيبتنا ونفتح لها ابواب بيوتنا ونحدث لها نواحيا للدعاية والتهذيب . ان الحوادث الاخيرة التي شجرت بتونس مثل التي وقعت بالمغرب او بمصر او بسوريا قد كشفت النقاب عن الدور المهم الذي تقوم به الشبيبة في الحركات السياسية بتلكم الشعوب التي هي بصدد اجتياز ازمة تطور . ومن المحقق ان الزجر يستطيع ان يهدىء موقتا الهيجان الشعبي لكن لنكن متحققين ان النار لا تزال كامنة في ادمغة الطلبة . فعلينا ان نبذل كل جهودنا لنجلب الينا تلك الشبيبة ولنستحوذ على عطفها ثم ياتي اخلاصها الينا فيما بعد من تلقاء نفسها .

ولا ننسى ان رجال الزعامة العريقة من ذوي البيوتات القديمة يتقلص ظلهم بسرعة يوما فيوما امام النخب المثقفة . فالطلبة اليوم هم رؤساء الغد . فاما ان يكونوا خصوما لنا او معاضدين لمشروعنا

« عن النهضة الغراء »

حول البحوث التونسية

لقد عودتنا حوادث هذه الشهور ان تبغتنا شركات الاخبار وءالات الاذاعة بحوادث عالمية ومفاجئات غريبة لا تخطر على بال عظماء السياسة وأصحاب الافكار والاراء، حتى توطدت نفوسنا على تلقي ما يجد من الحوادث والفت أسماعنا العجائب والغرائب، نترقب ظهور الجرائد اليومية الصباحية والمسائية مطمئنين انا سنجد فيها ما لم نكن نتوقعه ولا يدخل تحت حساب

ولقد طلعت علينا النهضة الغراء في يومي (١٤) و (١٥) من شهر افريل بمقالين افتتاحيين تحت عنوان « بحوث تونسية » ترجمتهما عن مجلة افرنسية قالت انهما لموظف عال افرنسي ولقد لفت نظرنا هذا العنوان لتعلقه ببلادنا العزيزة التي هي إحدى مشاكل اليوم المتعقدة وظننا اولا ان هذا الموظف العالي يعالج مسألة سياسية ومشكلة من المشاكل العامة الدولية لكن ما اتينا على المقالين حتى علمنا ان الرجل انما يعالج مسألة فنية وهي مسألة التعليم. وبما ان هذا الموضوع يهمنا بصفة خاصة لا سيما وفيه الحديث عن جامع الزيتونة قرأنا الفصلين باهتمام شديد. وما انتهينا منهما حتى تملكنا العجب واستولت علينا الدهشة. وقلنا :

كل يوم تبدي صروف الليالي خلقا من أبي سعيد غريبا

موظف عال افرنسي ممتاز بالذكاء وجودة القريحة يطعن المسلمين طعنة نجلاء في قلوبهم يحتقر تعليمهم ويزدري كتابهم ويحط من قيمة علمائهم ويظهر ما يكنه ضميره من البغض لهم في قالب نصيحة ويجهر بدعوة الحكومة الى محق اللغة العربية والدين الاسلامي والسعي في ادماج المسلمين في العائلة الفرنسوية وإدخالهم في بودقتها وطبعهم بطابعها قلبا وقالبا

يجهر بكل ذلك موظف فرنساوي في تونس المسلمة التي على رأسها امير مسلم شديد التمسك بدينه ولغته وله وزراء مسلمون لهم مثل ذلك الاحساس وحكومة الحماية تعترف لها بذاتيتها وتلتزم باحترام لغتها ودينها بل وعوائدها. ولكن هي السياسة ما دخلت في شيء الا افسدته. تدخل في التعليم فتفسده. وتدخل في اللغة فتفسدها. وتدخل في الدين فتفسده. فأعوذ بالله من السياسة وما تصرف منها.

تكلم هذا الموظف العالي اولا على التعليم بالصادقية والليسي وقارن بينهما وفضل الثاني على الاول بطرف خفي لانه تعليم لائكي بخلاف التعليم الصادقي لانه يبقي خريجيه على معتقدهم. ثم ذكر ان الذين يتلقون التعليم الثانوي من المسلمين الف وستمائة ضمن (٦٥٠٠) وقد استعظم هذا العدد على قلته وخشي ان يصير جيشا عرمرما . ولولا ان السياسة أثرت على هذا الموظف الكبير لما خشي من انتشار العلم بين التونسيين. وما عهدنا قط ان العلم يكون خطرا على أحد. وانما الجهل وحده هو الذي يكون سبب الشر والبلاء.

ثم ذكر هذا الموظف ان الفكر العام الاسلامي ينتقد القسمة الضيزى بين اللغة العربية والفرنسوية وعدم اعطاء الاولى ما تستحقه من العناية . ولكنه لم يجب عن هذا الانتقاد . ولربما كان لسان الحال أفصح من لسان المقال .

ثم أعترف بقلة عدد المتعلمين وانتشار الجهل والامية في خمسة اسداس الاطفال (وهو الخطر الحقيقي) ولكنه اعتذر عن ذلك بأن مصر رغم انتشار العلوم بها وصيرورتها مركز الثقافة العربية لم تزل الامية فيها متفشية اكثر مما هي متفشية في تونس .

ونحن نجيبه عن ذلك بانه اخطأ خطأ مبينا فان التعليم الابتدائي بمصر قد انتشر انتشارا عظيما حتى صار اجباريا او كاد . وتلامذة المعاهد الثانوية ذكورا واناثا يعدون بعشرات الالوف او ازيد والمعاهد العليا والكليات منبثة في البلاد تدرس فيها جميع العلوم والفنون . وليس اليوم الذي تزول فيه الامية عن بلاد الكنانة ويغيب شبح الجهل عنها ببعيد . ولعل هذا الموظف السامي لا يعرف شيئا من احوال البلاد المصرية ولا يقرأ جرائدها ولم يطلع على احصائيتها ولم يشعر بانها خطت خطوات فسيحة سريعة في مضمار العرفان .

ولقد اعترف جنابه بتفاهة التعليم الدولي المعطى للتونسيين واستشهد بالارقام . فمن بين (٣٠٠٠٠٠) مسلم في سن التعليم لا يوجد به الا (٤٢٠٠٠) فقط والبقية غارقون في لجة الجهالة . ولكنه مع ذلك عظم عليه ان يرى المدارس القرآنية مفتحة الابواب بها بضعة ءالاف من الاطفال يتعلمون اللغتين الا ان اللغة العربية لها النصيب الاوفر . فهو يرى ان بقاء هؤلاء في لجة الجهالة خير من تعلمهم على طريقة يرى انها خطر على السياسة . واستدل على خطر هذا النوع من التعليم الذي يلاقي معارضة عنيفة في الاوساط البيداغوجية والماصونية لانه حائل دون صبغ الايالة بالصبغة اللائكية بان الدستوريين مهتمون دائما بهذا النوع من التعليم لانه وسيلة طيبة لنشر المبادي الملية .

انا لنعجب والله ان يصدر مثل هذا من موظف عال . وانا لشارحون له سبب تعلق الامة بهذا النوع من التعليم . ان عموم التونسيين يطلبون فتح المدارس القرآنية العصرية لسببين فقط .

احدهما ضيق المدارس الدولية عن ايواء ابنائنا وبقاء الاكثرية الساحقة منهم يجوبون الطرقات يتلقون فيها أسوأ الاخلاق ويتعلمون المنكرات حتى اذا ما شبوا كانوا بلية هذه الامة ومصيبتها العظمى يعمرون السجون ويكونون قذى في عين هذا الشعب المسكين .

ثانيهما ما للغة آبائنا وديننا من الحظ المنقوص في المدارس الابتدائيـة الدولية ومعاملتها بالدون وما نابها في القسمة الضيزى .

وما كانت المدارس القرآنية العصرية في وقت من الاوقات وسيلة طيبة لنشر المبادي الملية . او ليست المدارس المذكورة خاضعة لادارة المعارف داخلة تحت مراقبتها ممتثلة لاوامرها . ولم يكن

زعماء الدستور اليوم من خريجيها . فما تخرجوا الا من مدارس الدولة بتونس ومدارس فرنسا فهي التي كونتهم وطورتهم ونفخت فيهم من روحها .

ولقد صرح اخيرا (وانا لنشكره على هذه الصراحة) بان الخوف الاعظم من تضاءل اللائكية ورسوخ العقيدة الاسلامية في قلوب التونسيين بسبب هذه المدارس وذلك سبب بعد الشقة بين العالمين اللاتيني والعربي . ولكنا نقول له: ان الشعب التونسي شعب مسلم منذ ثلاثة عشر قرنا ولغته هي العربية وانه رغم اختلاف عناصره التي تكون منها فانه لا يشعر الا بانه عضو من العالم العربي الاسلامي المنتشر في جميع اقطار الارض وهو لا يريد ان يتحول عن ذلك في مستقبل الزمان الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين . وتمسكه بأهداب دينه ولغته وقوميته لا يكون حائلا بينه وبين التطلع نحو الرقي والسير نحو المدنية الحقيقية والحضارة . وتاريخنا المجيد على ذلك اعظم شاهد . فلا يكن في صدره حرج من ذلك ولا يحزن علينا . وليعلم أن للعلم رحما أقوى وأمتن من رحم القرابة وان انتشار المعارف لا يزيد الامم الا قربا من بعضها . ولا يوسع شقة الخلاف الفاصلة بين الاديان المختلفة الا الجهل . ثم انتقل الموظف العالي الى الحديث عن جامع الزيتونة وأساتذته فاظهر الدفاع عن سمعتهم والحرص على المحافظة على كرامتهم واحترام الشعب لهم . ولذلك فهو لا يرضى لهم ان يلتحقوا بموظفي الحكومة وأن ينالوا ما ينالونه من المنح والغرامات والامتيازات وان ذلك ينقص من تعظيم الامة لهم لانهم اذا صاروا موظفين التحقوا حتما بالادارة اللائكية المنافية لصفتهم الدينية وخشي ان وقع ذلك ان يصير جامع الزيتونة يوما ما المدرسة الوحيدة العربية . وذكر ان حب المادة أعمى بصائر المدرسين وصيرهم يركضون وراءها .

ونحن نقول له : ان المدرسين لم تعم بصائرهم المادة ولا طمست على قلوبهم ولكنهم يا جناب الموظف الكبير قوم كسائر البشر ياكلون الطعام ويمشون في الاسواق وليسوا من نوع الملائكة الذين هم ارواح مجردة لاياكلون ولايشربون ولايلبسون ولم يكونوا يوما من الرهبان المنقطعين عن هذا العالم ومدنيته ولا من غلاة المتصوفة الذين زهدوا في الدنيا وزينتها . وهم في ذلك عاملون بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ومتأثرون بتعاليم الكتاب المقدس القرآن . فنبيهم عليه السلام قد اخذ شيئا من عرض هذه الدنيا ولم ينقص ذلك من عالي مرتبته وكان من اكثر دعائه عليه السلام : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار . واذا كان الله قد خلق لبني آدم ما في الارض جميعا . وقال : قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق فما لنا لا نأكل الرقاق ونلبس الرقيق وهل يريد الناس منا ان نتنازل لهم عن دنياهم ويتنازلوا لنا عن آخرتنا . لا بل اننا نريد ان نقاسمهم دنياهم ويقاسمونا آخرتنا . واذا كان غلاة الصوفية ينفرون الناس من الدنيا فليس ذلك هو التصوف الحقيقي . ومن اطلع على التاريخ علم ان العلماء قديما وحديثا كانوا يأخذون من الحكومات ارزاقا تكفيهم القيام باود حياتهم . فهذا نظام الملك وزير السلطان ألب

ارسلان المتوفى سنة ٤٨٥ الذي أنشا المدارس الكثيرة في بغداد واصبهان ونيسابور والشام وخراسان والعراقين كان ينفق عليها كل سنة سبعمائة الف دينار أغلبها لاساتذتها وهم من كبار العلماء الاتقياء بل من الصوفية ومن أشهرهم ابو القاسم الدبوسي وابو حامد الغزالي والشاشي والسهروردي وابو اسحاق الشيرازي وغيرهم ممن لا نحصي لهم عددا . وكانوا يتناولون المرتبات الطائلة من يد الحكومة وما علمنا ان ذلك نقص من مقدارهم أو حط من قيمتهم وما لنا نذهب بعيدا فهؤلاء الحكام الشرعيون بتونس يأخذون ما يأخذه الموظفون من منح وغرامات حتى الاعانة العائلية ومنحة السكنى وما سمعنا ان الناس ازدروا بهم لذلك

وأما قوله إنهم اذا صاروا موظفين دخلوا تحت النفوذ اللائكي وذلك لا يليق بهم فنجيبه عنه بأن المدرسين اذا صاروا موظفين لا يكونون تحت النفوذ اللائكي بل يكونون موظفين كسائر الموظفين التونسيين المسلمين الخاضعين للحكومة ورئيسها الامير المسلم الذي دين حكومته الرسمي الاسلام ولسانه العربي أحد اللسانين الرسميين . وما علمنا قبل اليوم أن تونس تعيش تحت نظام لائكي لا يعترف بالاديان ولا يخضع للتعاليم الروحية

ثم إن أسماعنا قد ملت والله من القول بأن التعليم بجامع الزيتونة تعليم ديني بحت ليس للحكومة أن تقوم به ولا أن تعترف به رسميا ولا تعترف بحق القائمين به فهذا خيال شعري لا يؤيده الواقع ولا تقره فلسفة ديكارت . فلقد قلنا وأعدنا القول المرة بعد المرة ان العلوم التي تدرس بالزيتونة نيف وثلاثون علما منها ما هو ديني بحت ومنها علوم دنيوية لغوية وادبية ورياضية وغير ذلك . فعسى ان لا نسمع بعد هذا ما مجته طباعنا ونبت عنه أسماعنا من كلام فارغ يراد به تخدير أعصابنا وإيأسنا من تحقيق مطالبنا

إن مطالبنا يا جناب الموظف الكبير لهي مطالب مشروعة لا بد أن يأتي عليها يوم تحل فيه محل التنفيذ وقد أعترف بصحتها أهل العقد والحل فاننا لا نطلب مستحيلا ولا نقول الا حقا

ما ذا نطلب ؟

إننا نطلب أن تكون مرتباتنا كمرتبات زملائنا في معاهد التعليم المماثلة لمعهدنا العظيم فإن من العار ان يكون مرتب النساخ في الادارات اكثر من مرتب مدرس من الطبقة الاولى بالزيتونة . ونطلب منحنا غرامة غلاء المعاش التي ياخذها حتى شواش الادارات والوقتيون نظرا لارتفاع اسعار المعاش على جميع الناس فكيف يعقل ان نبقى محرومين منها مع ان المعاش قد ارتفع ارتفاعا فاحشا ونحن نعيش كما يعيش الناس . ونطلب منحنا غرامة السكنى التي يأخذها جميع الموظفين ايضا حتى الوقتيون ونحن نسكن كما يسكنون واسعار الكراء مرتفعة جدا لا تتحملها مرتباتنا

ونطلب الاعانة العائلية التي نالها جميع الموظفين وهي اعانة على التكاليف العائلية لمن له اولاد أو ليس لنا اولاد كبقية الموظفين يطالبوننا بالمأكل والملبس

فهل هذه مطالب مشطة ؟ كلا والله . ما طلبنا إلاّ ما أخذه غيرنا من أمثالنا ومن هم دوننا رتبة فما هذا الاجحاف بحقوق أهل جامع الزيتونة وما هذه المعاملة الشاذة ؟

ثم تأسف الموظف العالي من عدم القضاء على التعليم القرآني الذي أخذ يتسامى نحو مسايرة الحياة العصرية ويبذل جهد المستطاع في سبيل مزاحمة التعليم الافرنجي . وتساءل بعد ذلك هل يدرك هذا التعليم القرآني غايته من المزاحمة والحياة ؟ وأجاب بانه لا يظن ذلك رغم المجهود العظيم الذي تبذله الامم الشرقية للابقاء على مدنيتها بارجاعها لمنفوان شبابها وادخال عناصر جديدة عليها بانشاء مصطلحات علمية والفاظ حديثة . وعلل ذلك ببقاء الاجتهاد موصد الابواب وأنه يصعب حله بقوة الناشئة الاسلامية

ونحن نقول له : إننا نجيبك عن هذا السؤال ونحقق لك أن التعليم القرآني الديني وإن تضاءل في اول الامر بسبب الصدمة قد أخذ في استجماع قوته ونشاطه واستعاد ما كان له من فتوة وأخذ يتطور مع الزمان ويزاحم غيره دفاعا عن حياته عملا بقاعدة تنازع البقاء . وهذه المدارس القرآنية العصرية لا تزال كل عام في ازدياد والمسلمون مقبلون عليها إقبالا عظيما مع أنها ليست مجانية وتلامذة جامع الزيتونة قد تضاعفوا في بحر عشرين سنة خمس مرات حتى فتحت له فروع جديدة رغم المعاكسات التي يلاقيها خريجوه . وقد تطورت أساليب التعليم به وستزيد تطورا وتقدما

فهل هذه يا جناب الموظف السامي علامات موت ؟ كلا والله بل هي حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة

وليس لفلسفة ديكارت ولا غيره قدرة على زعزعة تعاليم القرآن والسنة النبوية وإن القرآن لا يزيد مع العلم الا رسوخا وثباتا في قلوب اهله . سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم . والاسلام خالد خلود الجبال

وأما نصيحته لفرنسا بأن من مصلحتها القضاء على التعاليم القرآنية لتقريب الشقة بين الفرنسويين والبرابرة زاعما ان بقاءها من شأنه أن يبقي الافكار في جو من التعصب الديني وجنوح لاخذ ثار الحروب الصليبية .

ولكننا نقول له إنه قد غش دولته في هذه النصيحة ونحمد الله تعالى ان كبار الفرنسويين من اهل الحل والعقد بهذه البلاد لا يرون رأيه . وليعلم ان التعليم القرآني لا يوسع الشقة بين الشعبين . فالقرآن لا يأمر ببغض المخالفين وعدم معاملتهم بالحسنى وعدم القسط اليهم بل يأمر ببر غير المسلمين ومجادلتهم بالتي هي أحسن واحترام دمائهم واموالهم واعراضهم . ونقول له مع ذلك إنه هو وأمثاله ممن ينشرون على الصحف السيارة امثال هذه المقالات هم الذين يوسعون الشقة بين الفريقين ويؤثرون بأقوالهم هذه اثرا سيئا جدا في نفوس المسلمين . ولولا أنهم يعلمون ان هذا الموظف إنما يعبر عن رأيه لا عن رأى الحكومة لهالهم الامر . ولكن لهم ثقة تامة باصحاب المناصب العالية الذين لا تخفى على مداركم سخافة هذه الاراء . وإذا كنا نعتقد صحة قول الله تعالى : إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون . ونعلم أن جناب سمو أميرنا المعظم ابقاه الله لا يرضى بشيء من ذلك لقوة ايمانه وصلابته في الحق فلا نخاف من هذه الدسائس المصورة بصورة نصائح

يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا ان يتم نوره .

(مدرس)

جــدول الاصلاح والخطـأ

صحيفة	سطر	خطا	صواب
١٦١	١٢	مسطيه	ممطبه
١٩٣	١٠	تجعله	يجعله
١٦٤	١١	رسول صلى الله	رسول الله صلى الله
١٦٩	٢٢	مرءات	مرءآة
١٧١	٨	تكليف	تكليفا
١٧١	١٣	فلا تموتن	ولا تموتن
١٨٠	٩	سبيدنا	لسيدنا
١٨٠	٢٠	قضية	قضيته
١٨٢	٧	ابن داود	ابن دواد
١٨٣	١	قاض	قاضيا
١٨٣	١٠	الورغي	الورغمي
١٩٣	٨	القطيعة	القطعية
١٩٥	٣	الابياب	الابيا
١٩٥	٨	الفرادس	الفراديس
١٩٥	١٠	وانس بـ ها	وانس بها ❀
١٩٥	١٦	العود فقف	المعود فقف ❀
١٩٧	١٠	والسلام	والاسلام
٢٠٠	٢٢	لائكته	لائكيته
٢٠٣	٢٥	نواحيا	نواحي
٢٠٧	١٨	وايأسنا	واياسنا

اصلاح خطأ بالعـدد الثالث

١٠٩	٨	وصالح وثمود	وصالح اخو ثمود

تـنـبـيـه

اتصلنا من الحجة الامام الشيخ عبد الحي الكتاني مقال في نشاة الجمعيات الخيرية والملاجيء في الاسلام ضاق نطاق هذا العدد عن نشره ونشر غيره من التحارير والاجوبة عن الاسئلة التي وجهت الى المجلة فنعتذر لاصحابها الافاضل وموعدنا عددنا المقبل ان شاء الله